

د. عمرو عبد السميع

كفاحى

صفحات من سيرة المناضل المتقاعد طلبة هريدى وحكايات أخرى

تقديم : أحمد بهجت

دار الشروق


كفاحى

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تلكس SHOROK 20175 LE

د. عمرو عبد السميع



صفحات من سيرة المناضل المتقاعد طلبة هريدى
وحكايات أخرى

دار الشروق

إهداء

إلى كلّ مَن هُو طُلبة ..

مع خالص تحيّاتي

عَمرو

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقــدمــة

بقلـم : أحمد بهجت

ليست هذه دراسة نقدية جادة وثقيلة الدم من الدراسات التى يقرأها القارئ فلايفهم منها شيئا . . وكلما توغل فى القراءة ازداد عدم فهمه ، وبقدر عدم الفهم الذى ينال القارئ يزداد احترامًا وإعجابا بالناقد . . ليست هذه دراسة كذلك . .

يمكن أن يقال إنها محاولة لكشف مواضع فى حديقة من حدائق الضحك . . فالكتاب فى نهاية الأمر ينتمى إلى الأدب الساخر . . والأدب الساخر لامنطق له ، بمعنى أن المنطق المعتاد لايصلح له ولاينطبق عليه . . فهو أدب له منطقه الخاص المتميز ، الذى ينبع عادة من تفجير المنطق المعتاد . .

. . . .

ومؤلف الكتاب هو د . عمرو عبد السميع . .

وهو محاور صحفى من طراز رفيع ، إلى جوار مقدرته على ادارة ندوات صحفية سياسية ، وهى ندوات يستغل فيها قدرته على الصعود بالحوار إلى الذروة ، واستخلاص الرأى ، أو اعتصاره من أطراف الحوار، إلى جوار أنه رسام كاريكاتيرى فى الأصل . . .

وهو رسام يومى . . يستطيع أن يعثر على فكرة كل يوم ليرسم لوحته الكاريكايترية وقبل هذا كله هو مدرس اكاديمى فى كلية الإعلام ، وكانت اطروحته لنيل الدكتوراه هى « فن الكاريكاتير»

نحن إذن أمام جوانب متعددة فى شخصية الكاتب وهى مواهب تشبه قطعة الماس التى تشتعل من الداخل بألوان مختلفة ، حين يسقط عليها شعاع من الضوء وينكسر داخلها إلى آلاف الألوان . .

ليست السخرية إذن جديدة على الكاتب ، فهو يمارسها فى رسومه الكاريكاتيرية ، وإن كان كتابه هذا أول إبداع له فى عالم الكتابة الساخرة . . .

. . . .

إسم الكتاب « كفاحى » . .

وهو كما يحدثنا المؤلف فى العنوان « صفحات من سيرة المناضل المتقاعد طلبه هريدى » . .

تساءلت بينى وبين نفسى : لماذا اختار الكاتب هذا العنوان . . إن كفاحى كتاب شهير لطاغية ألمانيا النازية الهر ادولف هتلر . . فما هى العلاقة بين الهر ادولف والهر هريدى . .

إن كفاح هتلر الألمانى هو قصة حياة رجل يؤمن بالفاشية ، وهو رجل نجح بذكائه وعزمه على تحقيق امنياته وطموحاته والوصول إلى السلطة . . . بعدها تحولت ألمانيا إلى آلة حربية نجحت فى صب ويلاتها على الجنس البشرى كله . .

يختلف كفاح هتلر المصرى « طلبه هريدى » عن كفاح هتلر الالمانى فى الجوهر والشكل . . لقد اختار هتلر الفاشية ، واختار هريدى الشيوعية . . باختصار يمكن القول أن طلبه هريدى يكافح كفاح رجل ارزقى يبحث عن لقمة عيشه ، بعد أن سقط الاتحاد السوفييتى وتفككت معه مفاصل هريدى وضاعت الحسنة التى كانت تأتيه من الكتلة الشرقية . . .

. . . . . .

بهذه البداية النارية يبدأ الكتاب .

وهو يبدأ كما تبدأ المسرحيات الجيدة بأزمة طاحنة . . . . .

أزمة رجل مهدد بالمجاعة . .

لقد كان طلبه عبد الرحمن يوسف هريدى (هذا اسمه الكامل) يشتغل مناضلا من المناضلين الأشاوس ، ثم وضعت الشيوعية اوزارها وبركت بأقدامها الأربعة على الأرض . . . .

ماذا يفعل هريدى الآن . . ؟

كيف يتصرف فى الأيام السوداء القادمة . . ؟

مر أمام عينيه مشوار حياته النضالى . . إن البداية تبدو غائمة ومضببة ، ولكنها لاتخلو من وضوح .

لقد بدأ نضاله بتوزيع منشورات فى قرية شنتنا الحجر ، ثم أصبح شاعر عامية ينطبق عليه ما انطبق على شاعر الفصحى الذى قال :

الليل ليل والنهار نهار .

والارض فيها الماء والاشجار . . .

ثم ترقى استثنائيا إلى وظيفة المناضل بسبب نشاطه الواسع فى كتابة التقارير الحزبية ضد زملائه . . ثم رشحه أكثر من مقهى فى القاهرة للحصول على رتبة المناضل . . وجاء فى براءة حصول على الرتبه . إلى تى . . إس . . طلبه . . الذى صاغ آمال الناس فى بر مصر ، واقعا شعريا يحتقن بالغضب والكراهية . . .

تاريخ طويل فى التسول النضالى أو النضال التسولى . . تاريخ طويل يمر أمام عينيه . . . والآن يجلس طلبه أمام الأحداث متأملا قسمات هذا الزمان الجميل الذى ولى . .

ماذا يفعل طلبه هريدى الآن ؟

هل يستسلم لقدره . . . ؟ هل يعترف بالواقع الجديد وينزل على أحكامه؟ .

هل يندب حظه ؟ هل ينسحب من مسرح الأحداث ويطويه الظل ؟

هل يستمر على تجاهل الموقف الجديد ويظل وفيا لمبادئ الكادحين والبرولتياريا ؟ إن هناك بدائل كثيرة وإن كانت تعيسه أمام طلبه هريدى . . . . . فأى هذه البدائل يختار . . ؟

. . . .

يقولون أن الأختيار هو الرجل . .

هذا ما قال جان بول سارتر وكير كجرد من قبل ، ولئن كان طلبه هريدى لم يسمع بذلك إلا أنه كان فى الجزء الداخلى من نفسه رجلا وجوديا يدرك أن الكينونة تتوقف على الاختيار . . .

وبهذه النزعة البراجماتية الداخلية جلس طلبه هريدى وبدأ يحسب خسائره من انهيار الشيوعية ، وتوقف اجور المناضلين بعدها . . .

خمسة وعشرون ألفا وتسعمائة وأربعة وثمانون قرشا شهريا .

هذا حجم خسائره المادية ، كما حددها هريدى .

وكان لابد من التحرك بسرعة فى ثلاثة محاور . .

أولا : وقف هذا النزيف المادى وتعويضه . .

ثانيا : المحافظة على الهيئة الاجتماعيه . .

ثالثا : تحديد ملامح دور سياسى جديد . .

وجلس هريدى أمام الورقة والقلم وبدأ يفكر فى كيفيه تعويض خسائره .

إن القوى الرئيسية الموجودة على الساحة والمرشحة لمنحه دورًا جديدا كانت من وجهة نظره هى الحكومة ، والناصريون ، والوفد ، وقوى الإسلام السياسى ، وبعض مراكز الأبحاث والسفارات الأجنبية والعربية . .

. . . .

وجلس هريدى وصمم جدولا محاسبيا مبسطا وزع فيه الأعباء على هذه القوى . .

بدأ بالحكومة ، ونظرا لما تواجهه الحكومة المصرية من أعباء ومتاعب فسوف يكتفى بمطالبتها بخمسة الآف جنيه و ٨٤ قرشًا فى مطلع كل شهر أما الناصريون فقد كتب أمامهم مبلغ ثمانية الآف جنيه وتسعمائه وأربعة وسبعون جنيها . . ولجأ إلى التقدير الجزافى معتمدا على الشواهد ، أما تشكيلات الإسلام السياسى فقد كتب أمامهم ثمانية الآف جنيه شهريا . .

أما الوفد فقد طلب منه ١٧٥٠ جنيها شهريا . .

بقى بعد ذلك مبلغ ٢٢٥٠ جنيها ، وقد رأى طلبه أن تقوم بسدادها السفارات ومراكز البحوث والمنظمات غير الحكومية . .

بعد أن حدد طلبه هريدى طلباته المادية ، وجد نفسه أمام مشكلة تتمثل فى تحديد المصالح وتحديد الاسلوب . .

أما تحديد الاسلوب ففى الوسيلة التى ينوى طلبه أن يستخدمها فى إقناع هذه القوى بوجوب الاستعانه من خبراته النضالية . .

أما تحديد المصالح فقد لخصه طلبه فى شكل مجموعة من المعادلات الرياضية على النحو التالى :

١ ـ الحكومة ضد التطرف ،إذن لابد من إقناع الحكومة بأهمية نضاله فى مواجهة التطرف ومكافحته . .

٢ ـ الوفد ضد الحكومة ، إذن لابد من إقناع الوفد بأهمية طلبه فى مناوأة الحكومة .

٣ ـ الناصريون ضد بعضهم البعض ،لابد إذن من إقناع كل ناصرى بأن طلبه ضد بقية الناصريين . .

٤ ـ الاسلاميون ضد الكل ، إذن فلابد من إقناع الاسلاميين بأن طلبه يرفض الجميع . .

. . . .

بعد عشرة فناجين من القهوة السادة ، وست وثلاثين سيجارة ، قرر طلبه هريدى أن يتوكل على الله ويختار اسلوبا لتنفيذ مهمته ، وهو اسلوب يطلق عليه علماء السياسة تسميات عديدة ، إلا أن طلبه اختزل هذه التسميات فى تسمية شعبية يعرفها المصريون باسم رمى الجته أو تلقيح الجته . .

. . . .

بعد أن اطمأن هريدى أن كل شئ تحت السيطرة كما تقول الحكومة عند وقوع شغب . .

انطلق كالصاروخ يؤدى مهمته فى النضال . .

قابل السفير الأمريكى . . وذهب لجمعية النداء الجديد . . وجماعة ابن خلدون ، وكل الجماعات التى تعمل فى الحقل السياسى . . كما بدأ عقد ندوات لقراءة شعره . . .

باختصار . . انطلق طلبه هريدى يعمل أخيرا . .

. . . .

لا أريد أن أفسد على القارئ متعة القراءة بتلخيص الكتاب له ، فالكتاب أصلا يصعب تلخيصه . . .

ربما لان بناءه الداخلى يقوم على المواقف التى تتداعى ، ويسحب تداعيها أحداثا لم تكن فى الحسبان . . ولا فى التصور . .

وربما لان بناءه يقوم على أساس ارتكاز كل موقف على الموقف الذى سبقه ، بحيث يمكن للاجتزاء أو التلخيص أن يهوى بالبناء كله ويحطمه . .

. . . .

ولايبقى أمامنا سوى محاولة بيان الرؤية الابداعية فى الكتاب ذاته . .
يرسم د. عمرو عبد السميع صورة لمناضل من مناضلى هذا الزمان ، مثلما رسم ليرمونتوف فى كتابه « بطل من هذا الزمان » صورة لبطل المرحلة التى كانت تمر بها روسيا . .

ومع الفارق المتمثل فى درامية كتاب ليرمونتوف ، وفكاهية كتاب عمرو عبد السميع ، يبقى الأساس قائما ، وهو صورة إنسان ينتمى للعصر الذى يتحدث عنه المؤلف . . .

إن بطلنا طلبه هريدى إنسان يمكن أن يقال فيه مايقال ، ولكن ثمة ظاهرة واضحة تميزه . .

ظاهرة الصلابة . .

قد تكون عند بطلنا كلاحه أو تلاحة أو تلامة . . ولكنها فى نهاية الأمر صلابة . .

إنه يحدد هدفه ، ويشق طريقه إليه وسط قهقهة القارئ وعدم تصديقه لما يجرى . . .

رغم كل شئ . . ينجح طلبه هريدى فى أن يتحول ١٨٠ درجة من الشيوعية إلى الرأسمالية الأمريكية أو العمالة الأمريكية . . .

وهو يفعل هذا دون جهد من جانبه . .

يفعله بعفوية وانسياب ويسر . . . حتى ليخيل إليك إنه قد قام بتمرينات روحية عنيفه حتى وصل لهذه القدرة على التحول من أقصى اليسار لأقصى اليمين دون جهد . .

ويعرى المؤلف فى كتابه هذا النضال المستمر للبطل ، وهو يضحكناعليه كما يضحكنا على اصرار البطل على الوصول لأهدافه رغم استحالة هذا الوصول . .

وتنبع الفكاهة فى الرواية من تركيبة مركبة ومعقدة تأتى من الاحاسيس الداخلية للبطل وارتطامها بالواقع الحى المعاش ، ومن المدهش أن المؤلف يستخدم الخلفية كواقع ينقله بحذافيره ، بينما البطل خيال يستمد وجوده من الواقع . .

إن المجتمع الذى يتحدث عنه المؤلف واقع حى بأسماء أشخاصه ووظائفهم وكياناتهم . .

إما البطل فهو خيال له جذور فى الواقع . .

ومن خلال المزج بين ماهو واقعى وماهو خيالى يقوم المؤلف بتعرية النضال والمناضلين . . والمبادئ والقيم ، والأقوال والأفعال ، وبهذا كله يرسم صورة جديدة للمجتمع . .

صورة تثير الضحك . . وشر البلية مايضحك كما يقولون . . .

أيضًا تنبع الفكاهة من اللغة التى يستخدمها هريدى . . . .

إن هريدى ـ رغم أن المؤلف لايحدثنا عن دراساته الجامعية ، الا أنه يدعه يتحدث بينما نستمع نحن . . .

ونفهم نحن من أحاديته ولعه باللغة الأكاديمية التى تستخدم المصطلحات والمحاور والزوايا والأنساق والقوالب .

ولكن اللغة فى نهاية الأمر اشارة إلى شئ . . .

ومن المدهش أن طلبه هريدى يستخدم اللغة استخداما جديدا للغاية ، أنه لايشير بها إلى شئ واضح . . . .

ورغم ذلك فهو يتلاعب بها . . وخاصة فى شعره العامى الذى يقول فيه مايقول معتمدا على أن هذا شعر . . وأن أعذب الشعر أكذبه . . لا على سبيل المجاز كما يقول الشعراء ، وإنما على سبيل الحقيقة المؤكدة . .

يمكن القول إذن . .

إن طلبه هريدى يستخدم اللغة كما يستخدمها السياسيون ، انه يتكلم كثيرا ولكنه لايقول شيئا محددا . . .

هذا الاستخدام الاكروباتى للغة ، هو سمة كل المناضلين فى عصرنا، مثلما هو أيضا سمة للسياسيين . .

من هنا تنبع الفكاهة فى الكتاب ، كما تنبع أيضا من اهتمام المؤلف بالتفصيلات الدقيقة . . . .

وهى تفصيلات تراعى الشكل واللون والرائحة .

تأمل مايقوله المؤلف . .

« كانت رائحة نفاذه ومألوفة تنعبث من الخطاب ، وإستنفرت هذه الرائحة قدرات سيف فى الشمشمة محاولا تذكرها والتعرف عليها . . حتى هداه أنفه إلى أصلها وفصلها . .

إنها نفس رائحة السائل الشهير الذى تعود بعض ماريشلات سيدنا الحسين إن يلحوسوا به أيدى المارة أمام المسجد ، والذى يصعب التخلص من أثره فى الخمسمائة ساعة الأولى التى تلى اللحوسة . .

. . . . . .

أو تأمل وصف المؤلف لموقف طلبه وهو يسير . .

« كان طلبه يسير فى المقدمة ، ومن خلفه الفرسان الثلاثة ، متلفتا بنجومية ظاهرة إلى المارة، والبائعين الواقفين إلى جوار عرباتهم ، وقد رصت على العربات أهرامات صغيرة من ثمار الفاكهة ، وفوقها لافتات مكتوب عليها الأسعار . . وهم منهمكون فى تغيير هذه اللافتات بأخرى كل دقيقة ونصف بالضبط . . وهو المعدل الزمنى المتفق عليه لزيادة الأسعار » . .

. . . .

ستجد فى الكتاب مايضحك ، وستجد فيه مايُرفض ، وستجد فيه تهويمات شعرية تشبه ماجاء فى ديوان المناضل « قبلنى تحت الدبابه » . . رقم ٩٥ . . سفر البلاعه . .

. . . .

إن كفاح الهر هريدى ليس سوى نصف الكتاب . . . . .

بينما النصف الثانى حكايات أخرى . . وهى مقالات كتبها عمرو عبد السميع فى مناسبات مختلفة ونشرت فى الصحف العربية والمصرية . .

وفيها ماهو حزين وجاد . . وفيها ماينزع إلى الفلسفة والكآبة وفيها ما يصرخ بالفرح ويضج بالضحك . .

ويختلف اسلوب هذا الجزء الأخير عن اسلوب الجزء الأول فهو يتلون من الصفاء إلى العكارة ، ومن الغضب إلى الرضا ، ومن الحب للكراهية طبقا لمحتوى الموضوع والمادة . . . بينما يأخذ الجزء الأول « كفاحى » اسلوبا واحدًا هو الأسلوب الساخر ، وإن كان الحس الساخر يبدو متصلا فى الجزئين .

احمد رجب

البداية

آكل من فرخه نسيره

أربض فى عين الصيره

أهتف من قلب الجرح

المتقيح فى الأعماق :

«الساندوتش

فى الصباح وفي المسا

شيء إتنسى !

والأمريكان

فتحوا البيبان

والبغبغان

واقفه فى زوره ترمسه»

٤٣ : سِفر الشطافه

من ديوان رغبات مذبوحه

. . . .

ما إن أتم الشاعر المناضل طلبه عبد الرحمن يوسف هريدى إلقاء قصيدته الجديدة، حتى ارتجت القاعة الرئيسية لحزب الترقى، بتصفيق مدوى، ذى إيقاع منغم منتظم هز أرجاء المكان، فيما كان بعض شباب الحزب يرفعون

أصابعهم بعلامة النصر، وفى ركن من أركان القاعة وقفت بعض السيدات من أعضاء تنت (الحروف الأولى من التنظيم النسائى للترقى) يحيين الشاعر وقوفا، بينما طفرت الدموع الساخنة من مآقيهن تأثراً بقصيدة طلبه.

وكان قد سبق وصول طلبه إلى مقر الحزب جو مشحون متوتر، حيث تناثرت علامات الاستفهام فى المكان تتساءل عن سر تأخره زهاء الساعة، وراجت شائعات متنوعة تتحدث عن أن أجهزة الأمن ألقت القبض على الشاعر المناضل لتمنع وصول صوته إلى الجماهير حاملا كلمات قصيدته الجديدة.

وبينما كانت هذه الشائعات تسرى سريان النار فى الهشيم، إنهمكت إحدى المناضلات فى كتابة بيان بعنوان «لهفى على طلبه»، بينما بدأت رفيقات أخريات فى الاتصال بمنظمات حقوق الإنسان المحلية، والإقليمية، والدولية لتوزيع البيان عليهم، والذى يتضمن الإشارة إلى أن ما تعرض له طلبه يعد انتهاكاً لحرية التعبير والإبداع، بينما قام أحد رسامى الحزب بإعداد «موتيفًا» صغير يصور فيه جنزير دبابة يسحق قلما محفورا عليه حرفى الطاء والهاء (الحروف الأولى من اسم طلبه هريدى).

وفى هذه الآونة كان طلبه يتصل ببعض أعوانه من أعضاء الحزب عبر هاتف سيارته البيجو ٦٠٥ موديل ١٩٨٩، ويطمئن إلى أن الشائعة راجت بشكل مؤثر، مؤكدا فى كل لحظة أن نجاح القصيدة و«تسميعها» يعتمد اعتماداً أساسياً على خلق إطار أو جو مناسب تلقى فيه.

وما إن وصلت السيارة إلى شارع مجاور لمقر الحزب، حتى فتح طلبه حقيبته السامسونيت وأخرج أوراق القصيدة، ثم بدأ فى تغيير ملابسه باسلوب الرجل الذى يعرف ـ بالضبط ـ ماذا يفعل.

جينز أزرق كالح، بلوفر من الصوف الخشن ويراعى وجود خرق متوسط فيه عند الكوع الأيمن بحيث يظهر هذا الخرق واضحا عند تلويح طلبه للجماهير بيده اليمنى، ثم كوفيه فلسطينية تلف حول الرقبة بإهمال مقصود، وأخيرا حذاء من الكاوتشوك المحلى.

وبعد هذا بدل طلبه علبة سجائره الأجنبية وقداحته الذهبية، بعلبة أخرى محلية يرافقها مشط كبريت، ثم خرج من السيارة باندفاع من ينفى علاقته بها.

مشى طلبه عدة خطوات مسرعة، ثم توقف فجأة وشخص إلى الأفق بطريقة شبه فلسفية، وغير بعد ذلك أسلوب مشيته ـ حتى يخال للمرء حين يصادفه ـ أنه أمام حطام إنسان يسعى على الطوار متهالكاً، كمن تعرض منذ قليل لعلقة ساخنة ليس لها نظير.

ودلف الشاعر إلى مقر الحزب صائحا بصوت مبحوح فى كل من قابله أنه لا يريد أن يتحدث فى موضوع تأخره أو أسبابه، وأن رده الوحيد على الذين حاولوا الحيلولة دون وصول صوته إلى الجماهير، هو أن يلقى قصيدته الجديدة، حتى لو كلفه ذلك حياته.

ووسط الجلبة التى أحدثها طلبة عند بئر السلم، اندفع تشكيل من سيدات «تنت» اللائى هرولن على السلالم بلا نظام، مضفيات جوا دراميتكيا لافتا على الموقف، واختلطت الدموع، بالأحضان، بالقبلات، ويا حبيبى يا طلبه، وماذا فعل بك الكلاب؟، ولن تستطيع دبابات الدنيا أن تمنع وصول صوتك إلى الناس.

. . . .

كان سرد وقائع هذا المشهد أمراً ضرورياً قبل أن نستفتح معا سيرة المناضل طلبه .

وكان سرد وقائع هذا المشهد أمرا لازما لتُلم ـ معى ـ بأبعاد أزمة هذا الرجل وطريقته العبقرية فى الخروج من نفق الأزمة المظلم .

. . . .

نعم . . هى محنة متكاملة الأركان .

تلك التى تجد نفسك غارقا فيها حتى شواشيك ، حينما تفقد وظيفتك ، التى طالما عرفك الناس بها وعاملوك على أساسها .

وهكذا وجد طلبه عبد الرحمن يوسف هريدى نفسه يعيش هذه المحنة ، بعد أن فقد وظيفته كمناضل أشاوس ، حين وضعت الشيوعية أوزارها ، وأيضا حين بدا أن وجود بديل معنوى أو مادى (خللى بالك من «مادى» هذه وحياة أبوك) يعد أمراً مستبعداً ، على الأقل فى الأمد المنظور.

والحقيقة أن طلبه لم يبدأ مشوار حياته كمناضل أشاوس دفعة واحدة ، فقد تدرج فى سلك النضال شاغلا وظائف مختلفة بدأت بموزع منشورات فى قرية شنتنا الحجر، ثم شاعر عامية ، ،وتمت ترقيته استثنائيا إلى وظيفة المناضل بسبب نشاطه الواسع فى كتابة التقارير الحزبية ضد زملائه ، الذين صدرت منهم إشارات متنوعة تفيد افتقادهم للصلابة الثورية ، وسقوطهم فى مستنقع الميوعة السياسية .

ثم حصل ـ أخيراً ـ على رتبة المناضل الأشاوس بناء على ترشيح أكثر من مقهى من مقاهى المثقفين فى وسط المدينة ، وجاء فى براءة حصوله على

الرتبة: «إلى تى. إس. طلبه الذى صاغ آمال الناس فى بر مصر. واقعاً شعرياً يحتقن بالغضب والكراهية».

. . . .

والآن يجلس طلبه وحيدا متأملا قسمات وأحداث هذا الزمان الجميل الذى ولى، مفتقدا مزاولة مهنته الحبيبة الأثيرة إلى نفسه، مهنة المناضل الأشاوس.

ماذا يفعل طلبه فى كل هذه العيون التى تنظر إليه متشفية؟

ماذا يفعل طلبه فى أيام مستقبله التى تقبل عليه ثقيلة متحدية؟

ماذا يفعل طلبه وسط ظلام التجاهل البارد وهو الذى تعود أن يكون النجم الساطع فى كل المحافل السياسية والأدبية؟

. . . .

البحث عن دور

خمسة وعشرون ألفاً وتسعمائة وأربعة وسبعون جنيهاً، وأربعة وثمانون قرشاً شهرياً.

هكذا حدد طلبة هريدى حجم خسائره المادية بعد انهيار الشيوعية.

ارتعش القلم فى يده وهو يحسب على الورق حدود هذه الكارثة، بينما أحمرت مقلتاه، وجز على أسنانه بكل غيظ وموجده.

كان لابد من التحرك بسرعة لإيقاف هذا النزيف المادى المخيف، ثم كان لابد من التحرك بسرعة للحفاظ على الهيبة الاجتماعية، وتحديد ملامح دور سياسى جديد.

كل خلية فى جسم طلبه كانت على استعداد أن تبذل فى سبيل دور جديد كل مرتخص وغال، بل وكان صوت هاملت أمير الدانمارك يتردد فى جنبات نفسه فى كل لحظة: «أكون أو لا أكون.. تلك هى المسألة.. تلك هى المسألة».

وكانت القوى الرئيسية الموجودة على الساحة والمرشحة لمنحه دورا جديدا ـ من وجهة نظره ـ هى: الحكومة، والناصريون، والوفد، وقوى الإسلام السياسى، يحوطها بعض مراكز البحوث، والسفارات الأجنبية والعربية، ودوائر المثقفين متنوعة الدرجة والمستوى.

وبسرعة.. صمم المناضل جدولاً محاسبياً مبسطاً وزع فيه الأعباء على هذه القوى، إذ كان لابد ـ من وجهة نظره أيضاً ـ أن تضطلع كل منها بمهمة

محددة فى سداد ديون طلبه، بحسب قدراتها وامكانياتها، وبحسب استفادتها من ثقل طلبه ووزنه الجماهيرى ـ من وجهة نظره مرة ثالثة ـ.

بدأ بالحكومة، وكتب هامشاً فى أوراقه بالقلم الرصاص قال فيه: «إنه يعرف ويقدر الصعوبات التى تواجهها الحكومة المصرية فى مفاوضاتها مع المنظمات الاقتصادية الدولية، كما أنه يعرف ويقدر حجم الإنفاق الهائل على مشروعات البنية الأساسية الذى تجشمته هذه الحكومة، ثم أنه يعرف ويقدر ـ أخيراً ـ المشاكل الجمة التى تكابدها الحكومة نتيجة الزيادة السكانية المفزعة.. ومن ثم فإنه لن يطالب الحكومة بأكثر من خمسة آلاف جنيه وأربعة وثمانين قرشاً فى مطلع كل شهر».

وحين انتقل إلى تحديد المربوط على الناصريين واجهته مشكلة كبيرة، فلكى يحدد حجم إسهام الناصريين فى رفع أعبائه المالية، لابد وأن يعرف حجم دخل هذه المجموعة السياسية، وهاله عدم وجود مستندات أو وثائق تفيد أى باحث نزيه يود تقدير الموقف الاقتصادى للناصريين.

وهنا اضطر طلبه مرة أخرى إلى أن يخط بالقلم الرصاص هامشاً جديداً على أوراقه قال فيه: «نظراً لعدم توافر المعلومات فى هذا الموضوع الشائك والحساس، فإنه سيلجأ ـ مضطراً ـ إلى الاعتماد على الشواهد بدلا من الاعتماد على القرائن».

وأدت الشواهد ـ كما أكد لى طلبه شخصيا فى حديث هاتفى بتاريخ ٤/ ١١/ ١٩٨٩ ـ إلى تحديده (جزافيا) لمبلغ ثمانية آلاف جنيه وتسعمائة وأربعة وسبعين جنيهاً شهرياً على الناصريين، ولكنه لم ينس أن يضيف هامشاً جديداً على أوراقه بالقلم الرصاص قال فيه: «إن لجوئى للتقدير الجزافى بالنسبة للناصريين لا يعنى ـ على وجه الإطلاق ـ أن أسلبهم الحق فى

الطعن وإعادة التقدير بناء على أوراق ومستندات معتمدة يقدمونها لى فى موعد أقصاه ٣١/ ١٢/ ١٩٨٩، كما أن هذا التقدير يعد فى عرف القانون تقديراً كلياً مستحقاً على كل المجموعات والتشكيلات الناصرية، ولا تختص به مجموعة دون غيرها، وأن على كل الفصائل الناصرية أن تجتمع معاً، ولو فى شكل مؤتمر عام، لتحدد التزاماتها بدقة فى سداد المبلغ».

وإذا كان الاعتماد على الشواهد قد أقر من قبل طلبه كأسلوب للتعامل مع الناصريين، فإن مبدأ المساواة فى الظلم عدل جعل من المحتم إقرار الأسلوب المذكور نفسه فى التعامل مع تشكيلات الإسلام السياسى.

إلا أن المهمة ـ فى الواقع ـ كانت أسهل كثيراً فيما يتعلق بهذه التشكيلات إلى درجة أن طلبه لم يجد ضرورة لأن يخط بقلمه الرصاص أية هوامش، واكتفى ـ فقط ـ بكتابة كلمة واحدة ذات مغزى فى أسفل الصفحة بالقلم الأحمر الفلوماستر وهى: (بهاما.. Bahamas)، ثم كتب إلى جوارها دون تعليق: ثمانية آلاف جنيه شهرياً.

وبقى الوفد الذى مثل تقدير موقفه معضلة حقيقية بالنسبة لطلبه، فالوفديون ـ كأفراد ـ أغنياء جدا، ولكنهم لا يبدون كذلك كحزب، وتاريخ الوفد يفيد أن تغييراً طرأ على تركيب هيئته العليا منذ أواخر الأربعينات، وأنه كان تغييراً لصالح سيطرة الأغنياء، ولكن طلبه لا يعرف ـ على وجه التحديد ـ العلاقة بين تركيب الوفد القديم، وتركيب الوفد الجديد.

وهرش طلبه رأسه من الخلف (بالمناسبة طلبه ذو شعر أكرت اشتعل شيباً فى مناطق كثيرة منه، ويوجد خلف دماغه بقعة صلعاء هى المقصودة بفعل الهرش فى الموقف الذى نحن بصدد روايته).

بعد ثلاث هرشات ونصف ـ تقريباً ـ انفرجت أسارير طلبه، وارتسم على شفتيه شبح ابتسامه ماكره، وبدا وكأنه وصل إلى حل، وفوراً امتشق

قلمه الرصاص المشهور (أو الذى أصبح مشهوراً بعد كتابة هذه الصفحات من سيرته) وكتب على هامش الصفحة الأيسر:

«إن التداخل والتعقيد فى موقف الوفد المالى، يجعلنا أمام ضرورة الإلتجاء إلى حساب قيم اقتصادية ظاهرة، ومن ثم فإن حساب قيمة الأصول المملوكة لحزب الوفد هو أيسر السبل فى هذا السياق، وعلى رأس هذه الأصول صحيفة الوفد».

وإلى جوار هذا الهامش ثبت طلبه ورقه بدبوس إبره، بعد أن خط فيها خطاباً إلى الاستاذ جمال بدوى رئيس تحرير الوفد هذا نصه:

جريدة الوفد
١ ش بولس حنا ـ الدقى ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية.

عزيزى الأستاذ/ جمال بدوى

تحية طيبة وبعد..

تعلمون أننى بصدد ممارسة دور سياسى جديد بعد انهيار الشيوعية.

وتعلمون ـ أيضاً ـ أن الانهيار المذكور قد تسبب لى فى خسائر فادحة على المستويين المادى والمعنوى.

ونظراً للقيمة الثقافية والسياسية التى أمثلها، والتى لا يتطرق لأى مثقف مصرى وطنى أى شك بشأنها، فقد اتفقت القوى السياسية الوطنية (أغلبية ومعارضة) بمبادرة منها (وضع طلبه خطين تحت العبارة الأخيرة) على أن تقوم بتعويضى عن دخلى الشهرى الذى فقدته بانهيار الشيوعية، وفق نسب عادلة تتوافق مع قدرات كل منها وإمكاناتها.

ووجدت هذه القوى ـ بمبادرة منها أيضاً ـ (كمان خطين تحت العبارة الأخيرة) أن اسهام الوفد سوف يكون وفقاً لتقدير القيمة الاقتصادية لأصوله الثابتة وأهمها جريدتكم الموقرة.

وبعد حساب مصاريف الطباعة والمرتبات وحساب دخل الإعلانات، ونسبة التوزيع والاشتراكات، استحق عليكم دفع مبلغ صافى ألف وسبعمائة وخمسين جنيهاً شهرياً لى نقداً أو بحوالة مصرفية على عنوان: جمهورية مصر العربية ـ القاهرة ـ حزب الترقى ـ المقر الرئيسى.

ومع عظيم امتنانى وتقديرى، أرجو التنبيه على جهاز المحاسبات التابع لجريدتكم الموقرة بالتنفيذ فى الموعد المقرر شهرياً بالضبط وإلا اضطررت ـ آسفاً ـ إلى اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة.

مع تحيات المخلص

طلبه عبد الرحمن يوسف هريدى

* صورة إلى فؤاد باشا سراج الدين رئيس الوفد.
* صورة إلى الدكتور محمود أباظة رئيس لجنة الشباب بالحزب (إذ يعتبر طلبه نفسه من الشباب من وجهة نظره مرة رابعة وأخيرة).

. . . .

تبقى بعد ذلك مبلغ ألفين ومائتين وخمسين جنيهاً، وقد رأى طلبه أن تقوم بسدادها السفارات ومراكز البحوث والمنظمات غير الحكومية.

ثم وجد طلبه نفسه أمام مشكلة جديدة، إذ لابد لعملية بهذا الحجم من توفر عنصرين رئيسيين:

١ـ تحديد المصالح.

٢ـ تحديد الأسلوب .

وتحديد المصالح يعنى أن يقوم طلبه بخلق مصلحة لكل قوة سياسية من القوى التى ستضطلع بالتمويل، بحيث تكون مقتنعة بأن ما تدفعه هو مقابل متواضع لما سوف تحصل عليه من خدمات يؤديها طلبه عبر دوره السياسى الجديد معها .

وبالنسبة لتحديد الأسلوب فيعنى الوسيلة التى سيستخدمها طلبه فى اقناع هذه القوى بوجوب الاستعانة به .

وأما عن تحديد المصالح فقد لخصه طلبه فى شكل مجموعة من المعادلات الرياضية على النحو التالى :

١ـ (الحكومة ضد التطرف) . . . إذن لابد من إقناع الحكومة بأهمية طلبه فى مكافحة التطرف .

٢ـ (الوفد ضد الحكومة) . . إذن لابد من إقناع الوفد بأهمية طلبه فى مناوأة الحكومة .

٣ـ (الناصريون ضد بعضهم البعض) . . . إذن لابد من إقناع كل ناصرى بأن طلبه ضد بقية الناصريين .

٤ـ (الإسلاميون ضد الكل) . . . إذن لابد من إقناع الإسلاميين بأن طلبه يرفض الجميع .

. . . .

أما عن تحديد الأسلوب فقد كان ذلك أمراً شديد التعقيد استهلك طلبه فى سبيله حوالى عشرة فناجين من القهوة السادة، وست وثلاثين سيجارة، قبل أن يهتدى إلى ضرورة إحياء وبعث أسلوب قديم ورد فى كلاسيكيات أدبيات العلوم السياسية، بوصفه أنجح الأساليب وأكثرها فاعلية فى تحقيق

المطلوب ، وقد أطلق علماء السياسة على هذا الأسلوب تسميات عدة ، إلا أن طلبه عمد إلى اختيار التسمية الأقرب إلى عقل ووجدان المصريين وهى : «رمى الجته» !

. . . .

كل شىء ـ الآن ـ تمام .

خريطة القوى واضحة . . تحديد المصالح كامل . . تحديد الأسلوب تم .

ولم يبق سوى بعض الرتوش بشأن التحرك فى السفارات ومراكز البحوث والمنظمات غير الحكومية ، ثم يدشن طلبه انطلاقته السياسية الجديدة فى سماء الوطن .

لقاء مع السّفير الأميركي

«فورد فونديشن» . .

وضع طلبه سبابته على السطر، فيما كان يستعرض قائمة بأسماء مراكز الدراسات، ومؤسسات البحوث العاملة فى الوطن، والمرشحة لأن تكون ساحة من ساحات تحركه المقبل، والمرشحة ـ كذلك ـ لأن تكون مصدراً تكميلياً لتمويله وتعويضه عن خسائره المادية، فيما بعد انهيار الشيوعية.

ليست هذه أول مرة يصادف فيها طلبه هريدى اسم فورد فونديشن، فقد لاحظ منذ زمن بعيد الأهمية القصوى، والاعتبار الكبير الذى يوليه الباحثون والخبراء من المصريين لهذا الاسم.

. . . .

هز الشاعر رأسه، وتمتم : «اللهم صلى على النبى . . فورد ولا أحد غيره سيكون المدخل إلى كل المجتمع الأكاديمى والبحثى فى مصر المحروسة» .

لم يكن طلبه على يقين، أو ـ حتى ـ على بينة حول ما تعنيه فورد فونديشن، أو مصادر قوتها ومنابع نفوذها فى الدوائر البحثية فى مصر، وقد ظن فى البداية أنها مؤسسة مصرية خيرية كالجمعية الشرعية مثلاً تُعنى بدفن الموتى، وإقامة موائد الرحمن فى شهر رمضان المعظم، كما تُعنى بالرش على الفقراء والسابله من الخبراء والدارسين والمهتمين (إذ لا يمكن لأى عين مهما بلغت درجة غفلتها أن تتجاهل درجة الإسراف العاطفى التى وصل إليها

الخبراء والباحثون فى علاقتهم بالفونديشن والتى لابد أن يكون لها مسبب مادى أو تمويلى يأخذ شكل الرش المنتظم، أو الموسمى حسب مقتضيات الحال).

ولم تقتصر صورة فورد فونديشن فى ذهن طلبه، على هذا الفهم لدورها ووظيفتها، ولكنها امتدت الى آفاق جديدة أكثر تشابكاً وتركيباً.

فقد كان الشاعر يظن أن هذه المؤسسة مملوكة لرجل من أهل البر والإحسان يدعى فريد، وأن جموع الباحثين والخبراء والدارسين أطلقت عليه اسم «فورد» على سبيل التدليل ومن فرط الوجد والمحبة والرغبة فى النفاق والملق.

لم يستسلم طلبه لتصوراته وظنونه طويلاً، فالمشروع الذى هو بصدد إطلاقه، والدور الذى هو بصدد الاندماج فيه يحتاجان أول ما يحتاجان إلى الدقة ثم الدقة ثم الدقة.

أدار قرص التليفون طالباً صديقه ياسر منصور الصحفى فى جريدة الجمهورية، وتأبط الحرص والحذر وهو يكلمه بهمس، وبلغة أقرب ما تكون إلى الشفرة: «ياسر.. قابلنى فى حديقة نقابة الصحفيين بعد ساعتين.. الموضوع مهم ويتعلق بالسيكوسيكو.. سلام»!!

كانت «السيكوسيكو» كلمة يستخدمها طلبه مع صديقه ياسر منذ انهيار الشيوعية، وتعارفا على كونها تعنى الدور السياسى الجديد»، والحقيقة أن ياسر منصور لم يك ـ يوماً ـ شيوعياً، بل ولم يك ـ يوماً ـ سياسياً، ولكنه كان صديقاً وفياً لطلبه، يحبه ويعطف عليه منذ كانت والدة طلبه تذهب لمنزل المستشار منصور عبد الرحيم (والد ياسر) لتساعد سيدة المنزل فى تسييح

الزبده، أو فتل الكعك، وتحمل إليها برطمانات «المفتقة» ممتدة المفعول من صنع يديها، ثم تنصرف بعد أن تعطيها والدة ياسر ما تيسر من نقود، أو ملابس مستعملة، أو كتب مدرسية قديمة لابنها طلبه.

وكان ياسر يرى أن نجاح طلبه فى القيام بدور سياسى جديد، ولو ـ حتى ـ باستخدام أسلوب رمى الجتة، سوف ينقذ الشاعر من انهيار عصبى محقق، كما سوف ينقذ ياسر من عمليات خرم المخ المكثفة التى يمارسها طلبة معه، فى المكالمات الهاتفية، أو اللقاءات السريعة ذات الطابع المريب، والتى هى وليدة الفراغ المعنوى والمادى الذى سقط فيه طلبه من حالق بعد انهيار الشيوعية. (لا يعرف طلبه ما إذا كانت كلمة «من حالق» مناسبة فى هذا السياق أم لا. . لكنه يرى أنها كلمة وجيهة تسبغ قدراً مناسباً من الاحترام بغض النظر عن كونها تعنى شيئاً).

. . . .

ارتشف طلبه رشفة من شاى نقابة الصحفيين الردىء والذى يثير فى النفس الإنسانية شعوراً صوفياً بالاقتراب من السماء، يتفجر فى نفوس الشاربين بعد أن تبلغ القلوب الحناجر، وهى ظاهرة حار الطب فى وصفها طويلاً، ثم وُصفت فى القواميس والمعاجم ودوائر المعارف الطبية بأنها : «حالة عضوية / نفسية يصاب بها المهنيون المشتغلون بالكلمة لدى تناولهم مشروباً أسود ساخناً مجهول التركيب الكيميائى فى حديقة نقابتهم».

استعد طلبه لمفاتحة ياسر فى الأمر بأسلوب لا يخلو من خطورة ورهبة، وقرر أن يلقى فى وجه صديقه بسؤال مباشر كالقنبلة :

« أبو اليسر. . ماذا تعرف عن فورد فونديشن؟ »!

أجابه ياسر بدهشة :

«هى مؤسسة أمريكية خاصة بتنشيط التعاون العلمى والتكنولوجى بين الولايات المتحدة الأمريكية ودول العالم الثالث، ولها مكتب فى مصر يديره سليم نصر، ومكانه هو عمارة إيزيس، وتنتسب المؤسسة فى اسمها إلى هنرى فورد صاحب شركة السيارات المعروفة باسمه، ومن ضمن المؤسسات التى تدعمها الفونديشن فى مصر: جامعة القاهرة، كما تقدم قروضاً لبعض أهالى الصعيد، كما تشارك اليونيسيف فى مشروع لتنمية دخول الأسر الصغيرة. . . ».

ثم استطرد ياسر:

«ولكنى أسمع، ولعلك تسمع، بعض الشائعات الخاصة بفورد، والتى لا يمكن التعويل على قيمتها، أو أهميتها، كأن يقال إنها إحدى وسائل جمع المعلومات التفصيلية عن مجمل النشاطات السائدة فى مجتمع من المجتمعات، أو إنها تقوم بتدوير فائض الطاقة العلمية لخدمة أهداف غير وطنية، أو إنها مؤسسة ذات أهداف مريبة».

صاح طلبه صيحة هزت شارع عبد الخالق ثروت من أقصاه إلى أقصاه قائلاً : «الله أكبر . . أموت فى الأعمال المريبة!».

بلغ الانفعال مبلغاً هائلاً من طلبه، بعد أن أحس أنه وضع يده ـ بالصدفة ـ على مدخل قد يفضى به إلى علاقة مع الأمريكان شخصياً، وهو الأمر الذى ينبئ بآفاق هائلة لدوره الجديد المرتقب.

ووسط انفعالاته المشتعلة، ألقى بنظرة تلصصية ـ اعتادها منذ زمن طويل ـ على حقيبة ياسر التى أسندها بجوار كرسيه فى الحديقة، فوجد بطاقة دعوة تطل من جيبها وعلى طرفها قرأ بعض عبارات أفادت بأنها دعوة من

السفير الأمريكى مستر إدوارد ووكر لحفل استقبال يقيمه فى مقر السفارة الأمريكية بشارع أمريكا اللاتينية فى جاردن سيتى .

«هى فرصة العمر» همس طلبه لنفسه ثم قبل يده ظاهراً وباطناً ، بعد أن أحس أن السماء كانت شديدة الكرم معه فى هذا اليوم ، وبسرعة رسم خطته السافلة ، للاستيلاء على بطاقة الدعوة .

كان الأستاذ سلامة أحمد سلامة يصعد الدرج الرخامى المؤدى إلى المبنى ، فى هذه اللحظة ، لحضور اجتماع مجلس النقابة ، فالتفت طلبه إلى ياسر مباغتاً إياه بلهجة مؤنبة : «كيف لا تقف على حيلك وتذهب للترحيب بالأستاذ سلامة؟ . . لقد طرح الرجل فى عموده اليومى عدة آراء شجاعة ومهمة تستحق منا جميعاً التحية ، وأن نذهب لشد أزره ورفع معنوياته» .

أحس ياسر بالعار والخجل من تقصيره تجاه الأستاذ سلامة أحمد سلامة ، فهب واقفاً وأسرع تجاه الأستاذ ليبلغه إعجابه ومؤازرته ، وفى لمح البصر كان طلبه قد التقط بطاقة الدعوة من حقيبة ياسر ووضعها فى جيب سترته الداخلى .

ولما عاد ياسر ، وقبل أن يستقر على كرسيه ، كان طلبه قد نهض ، وبرطم فى نصف اهتمام : «أستأذن يا أبا اليسر . . سلام» !

. . . .

مبنى السفارة الأمريكية فى جاردن سيتى قلعة تتلألأ بالأضواء ، وتستعد لاستقبال ضيوف مستر ووكر ، ضابط المرور وجنوده يتصايحون على سائقى سيارات أعضاء السلك الديبلوماسى من المدعوين لحفل الاستقبال لإخلاء الطريق ، والاتجاه إلى منطقة انتظار السيارات المحددة ، بينما ونش إدارة المرور

يعمل نشطاً فى إقصاء سيارات المواطنين على امتداد الشارع، فيما تضوى اللمبات الحمراء والزرقاء فوق سطح الونش.

طلبه يدلف إلى السفارة مبرزاً بطاقة الدعوة، وناظراً بخوف أجرب، إلى رجال الأمن داخل المبنى، حيث السماعات تتدلى من آذانهم، وأماكن الطبنجات تبرز من تحت ستراتهم، وأعينهم لا تكل البحلقة فى وجوه الجميع وفى كل الاتجاهات.

صعد طلبه إلى المدخل ونظر مشدوها مبهوراً، كانت الدنيا هايصة، وفساتين السهرة تلمع وتبرق تحت الأضواء ، والرجال بالحلل السوداء منهمكون فى أحاديث لها طنين خفيف يوحى بالأناقة والخطورة معاً.

طلبه لم يك يريد إضاعة الوقت، فهو، يبغى الوصول إلى هدفه مباشرة، سعادة السفير، ولا أحد غيره.

اقتنص نادلاً يحمل صينية فاخرة رصت عليها أكواب الشراب وسأله : «أين سعادة السفير الله يبارك لك»، فأشار النادل إلى شخص طويل يقف وسط مجموعة من الرجال المهمين يتحلقون حوله، وأردف النادل: «ها هو، وحوله من اليمين مسيو باتريك لوكلير السفير الفرنسى، وكريستوفر لانج السفير البريطانى، والسفير الإيطالى ويليو تشينى برتولى والدكتور نيكولاس فان دام السفير الهولندى، والسفيرة الهندية ـ بالسارى على الشمال ـ أروند دانت جوس».

ثم أشار النادل إلى رجل قصير ذى ملامح آسيوية لا يكف عن الحركة فى المكان قائلاً : «أما هذا فهو السفير اليابانى كاتو كورا».

(لاحظ طلبه أن السفير اليابانى ينظر إلى مستر ووكر مرقصاً حاجبيه، ومردداً بعض كلمات باليابانية، فلما سأل طلبه النادل عن معنى هذه

الكلمات أجابه: «إننى لا أعرف اليابانية، ولكن يرجح أنها تعنى «ها تجوز عمتك»).

شق طلبه طريقه بصعوبة نحو مستر ووكر، حيث كان سفير السودان الطيب الكردفانى قد أمسك بتلابيب بعض الصحفيين محاولاً إقناعهم بأن الناس فى السودان سعداء، والأكل كثير، ومعدلات النمو فائقة السرعة!

ما إن وقف طلبه على مقربة من مستر ووكر، حتى غمز له بعينه غمزة ذات مغزى مشيراً بيده إلى أنه يريد الاختلاء به قليلاً، ورغم أن مستر ووكر أحس بارتباك شديد إزاء هذا الشخص الذى لا يعرفه، إلا أنه تصرف بكياسة معتذراً لضيوفه ومنسلاً فى براعة.

دخل طلبه فى الموضوع مباشرة فقال: «كما تعلم سعادتك، فقد كنت شيوعياً، وأثرت كثيرا فى موقف الجماهير المصرية إزاء الولايات المتحدة، ونظراً لانهيار الشيوعية، فأنا أطرح عليك أن نفتح صفحة جديدة وعفا الله عما سلف، ويا بخت من قدر وعفا».

كان مستر ووكر ينظر طوال الوقت باستغراب شديد لحركات يدى طلبه، وتعبيرات وجهه، وعلى الرغم من أنه يتقن العربية مذ درس فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة قبل أن يحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة، إلا أنه يفضل استخدام الإنجليزية إذا استشعر أنه بإزاء موقف سياسى أو ديبلوماسى يقتضى الدقة، فقال:

« What's the matter with you ?! »

ظن طلبه أن كلام السفير يعنى موافقة مبدئية على العرض الذى قدمه إليه فأضاف فى سرعة:

«إننى أعلم أن الوقت والمكان غير مناسبين، ولكن الموضوع لا يستطيع الانتظار، ولذلك دعنى أحدثك فى التفاصيل مباشرة. . بصراحة أنا بتاعك. . وكل ما هنالك أنك إذا أردت منى شيئاً فلن تتكلف إلا تليفون صغير تجريه سكرتيرتك أو أحد معاونيك، وسأكون عندك فى دقائق وتحت أمرك».

ثم أردف بعد أن غمز بعينه غمزة أخرى ذات مغزى : «أما بخصوص المسائل فأنا أفضل ألا تشغل بالك بها، وتتركها كاملة إلى مستر جون ويسلى مدير هيئة المعونة الأمريكية فى مصر، والذى فهمت أنه مختص بموضوع الفلوس بشكل عام، وبالطبع - فى هذا السياق - سيلزمنى كارت من سعادتك إلى مدير مكتب فورد فونديشن فى مصر لإقناعهم بضرورة المشاركة فى تمويل دورى السياسى الجديد تحت رعاية سعادتك وإشرافك. . . ».

وقبل أن يستطرد طلبه مزيدا من الاستطراد، كان وجه مستر ووكر قد احمر وبدت عيناه الزرقاوان أكثر زرقة، وهى تتشعلق بسقف القاعة، فى ضراعة حقيقية، بينما تتمتم شفتاه : « Crazy! ».

ظن طلبه أن كلمة السفير تعنى تأكيدا على الموافقة فواصل حديثه :

«بالطبع فإن مساندتك لى سوف يكون لها أبلغ الأثر فى اهتمام الدوائر الحكومية والحزبية بشخصى، وخصوصا إذا أبدى مستر جون ويسلى مساندة «قلبية» ظاهرة تجاهى، إذ تعلمون يا سعادة السفير مدى الثقل المعنوى الذى تتمتع به كلمة «المعونة» فى بلادنا، بحيث يفهم الجميع أن استمرار المعونة يمكن أن يتأثر، إذا لم تتم مساندتى بفاعلية كافية».

وقبل أن يواصل طلبه كان مستر ووكر قد أشار بيده، ووجه كلمة إلى شخص يقف إلى جواره : [Security ..].

ولم تمض ثوان حتى كانت مجموعة من الرجال الذين رآهم طلبه فى المدخل يحملونه مرابعة إلى الخارج، وقد ظن أن هذا تكريم إضافى من السفير تجاه واحد من أهم ضيوفه فلوح له بيده مبتسماً، ولم ينس أن يغمز له بعينه غمزة أخيرة ذات مغزى!!

. . . .

خرج طلبه إلى شارع أمريكا اللاتينية والنسمات الباردة تلفح وجهه، وقلبه يرقص من الفرح، فقد بدأ اليوم طريقه الحقيقى نحو دوره الجديد تحت رعاية القوة الأعظم الوحيدة فى عالمنا، وبمباركة وتأييد النظام العالمى الجديد، ولم يبق أمامه سوى أن يشكل تنظيمه أو جهازه الذى سيصبح مركز الثقل الحقيقى فى الحياة السياسية والثقافية فى مصر.

الحساسية الجديدة
ومبدأ الهرش

رنين الهاتف يجلجل فى مقر حزب الترقى، القاعات الخاوية تبد
وهى تستقبل هذا الرنين الأول من نوعه منذ ثمانية شهور.

الصور المعلقة على الحوائط لجيفارا لينين وستالين وهنرى كورييل
أم شبشب تبدو وكأنها تترامق فى استعجاب من صوت الهاتف.
بعضها يهمس للآخر: «مؤكد شخص طلب نمرة غلط.. أو ربما
تليفونية حقيرة.. قلة أدب».

رجل عجوز يرتدى حلة قديمة لكمسارى ويمسك فى يده بفوطة
يهرول إلى الهاتف الذى غطاه التراب، ونسج العنكبوت عليه خيوطاً
السماعة إلى قرص الأرقام.

«آلوو. أهلاً يا أستاذ طلبه.. تعيش وتفتكر يا فنان يا عظيم
سيد بيومى الساعى.. لا يا فندم ما حدش بييجى الحزب خلاص.
الحزب تلاقيه فى نادى الجزيرة فى ملعب الكروكيه.. والأمنا المسـ
بيقلبوا عيشهم ربنا معاهم.. رأفت فتح سوبر ماركت.. وسـ
مكتبة.. ورؤوف فتح كشك سجاير. وبقية الأعضاء بيشربوا بير
النهار فى البار اللى فى شارع سليمان باشا لما بيتعدموا العافية.. لا يا
طلبه.. عضوات «تنت» ما بيروحوش البار «دول عقبال أملتك فتحـ
أزياء فى الروضة اسمه بيت أزياء كلينتون.. أنا بس اللى بأجى المقر.

حتى بافكر أجيب العيال وأمهم ونقعد فيه . . خلينا نقب على وش الدنيا يا أستاذ طلبه . . واحنا برضه ياما خدمنا الحزب وعمرنا ما أتأخرنا عليكو فى الطلبات . . فاكر القرفة اللى كنت بأعملهالك بإيدى يا أستاذ . . هاهاهاى . . والنبى كانت أيام زى العسل . . . » .

كان طلبه يتلقى الأخبار التى تطوع بها عم سيد بنفاد صبر واضح ، وبنبره حازمة قرر أن يقطع استرسال الساعى فى سرد ذكرياته السخيفة عن أمجاد الماضى ، وبصفة عامة فهو لا يرتاح إلى سيد بيومى هذا ، وتساوره شكوك ـ الآن ـ أن هذا الرجل شيوعى ! !

«اسمع يا عم سيد ، أود أن تذهب إلى الأتيليه ، ومقهى زهرة البستان ، وتبحث عن ماهر ونور وسيف بأية طريقة ، وإذا وجدتهم ، أريدك أن تُسر فى أذن كل منهم على انفراد بأننى أريدهم عندى فى البيت اليوم فى الخامسة بعد الظهر لأمر شديد الأهمية ، فاهم يا عم سيد ، شديد الأهمية» .

أغلق طلبه السماعة بسرعة ، وكأنه يود التخلص من صوت سيد بيومى المزعج ، ويسد عليه الطريق أمام أية أسئلة فضولية مرذولة سمجة .

بدأ طلبه فى إعداد المكان للاجتماع المنتظر ، وكان قد نزل صباحاً للتسوق وشراء احتياجات الاجتماع ، زجاجتى ويسكى فاخرتين (إذ انتهت الأيام التى كان يعيش فيها بشخصيتين وأصبح دوره السياسى الجديد يقتضى الإفصاح عن بعض مظاهر الأبهة والشياكة وأولها زجاجتا الويسكى الفاخرتان) ، ثم ضمت قائمة التسوق أيضاً بعض شرائح من السالمون المدخن ، وبعض شرائح أخرى من الجبن الإيمنتال ، وبطارخ بلدى من النوع الذى يهز القناعات الثابتة فى نفس وعقل أى إنسان ، وبعض الفستق المملح الذى يعصف بالقناعات المذكورة عصفاً كاملاً ونهائياً ، وأخيراً ضمت قائمة

التسوق ثلاث حلل أنيقة، وثلاثة قمصان، وثلاث رابطات عنق، وليفة كبيرة، وثلاث صابونات!!

....

اختار طلبه غرفة السفرة كمكان للاجتماع، واعتنى بوضع أوراق فولسكاب أمام أربعة مقاعد متواجهة، وألقى فى كوب فارغ بمجموعة من الأقلام الرصاص وأقلام الفلوماستر، كما وضع علبة مناديل ورقية للجميع، وزجاجة مياه معدنية ومعها أربعة أكواب من الكريستال فى صينية تتوسط المنضدة.

أما فى الصالون فقد وضع زجاجتى الويسكى، وبضعة أطباق صغيرة من الفخار تحتوى حبات الفستق المملح ذى الخاصية الفريدة ـ السابق الإشارة إليها ـ فى العصف الكامل والنهائى بالقناعات الثابتة.

أشعل طلبه سيجاراً كوبياً فاخراً، وفتح جهاز التليفزيون، ومد ساقيه على منضدة صغيرة أمامه، وأخذ يتأمل حلقات الدخان المتصاعد فى سماء الغرفة، مفكراً ـ بعمق واندماج ـ فى ملامح جهازه الخاص، الذى هو بصدد تكوينه اليوم، ليبدأ التحرك الفعلى سعياً وراء الدور السياسى الجديد.

كان ماهر عبد الهادى، ونور أحمد السعيد، وسيف صلاح الدين، من أخلص أصدقاء طلبه فى حزب الترقى، وقد نمت علاقته بهم منذ رياعين الشباب الغض المبكر فى قرية شنتنا الحجر، وترافقوا جميعاً فى مسيرتهم الحزبية والنضالية، وهم جميعاً موهوبون كجماعة، ولكن مواهبهم هذه لم تأخذ شكلاً فردياً واضحاً كالذى اتخذته موهبة طلبه الساطعة والأكيدة.

كل منهم كان بارعاً فى التخديم على رجل مبدع كطلبه، ولكن أياً منهم لم يك قادراً على أن يمارس إبداعاً من أى نوع.

وقد أنفق كل من الثلاثة سنوات طويلة من حياته فى تدبيج المقالات النقدية عن أشعار طلبه، وفى نشر هذه المقالات فى الصحف العربية السيارة، التى يسيطر على الأقسام الثقافية فيها صحفيون ينتمون، إلى نفس التيار السياسى، وإلى نفس المزاج الفكرى.

ولم يك أى منهم يتوانى لحظة عن القيام بعمليات الحشد لحضور ندوات طلبه الشعرية، أو الاشتباك مع خصومه ـ الشاعرين بالحقد والإحن على موهبته الدافقة ـ فى المقاهى الثقافية، وجلسات السمر، ولم يك أى منهم ـ كذلك ـ يتأخر لثانية عن أى طلب للرفيق طلبه أياً كانت غرابته، أو وضاعته.

كانوا جميعاً أشبه بالأقمار الاصطناعية التى تدور فى فلك كوكب كبير، لا يبتعدون عنه إلا بمقدار ما يسمح ويريد، أو بمقدار ما يرغب فى إعطاء ظهوره مساحة منفردة متميزة لا يشاركه فيها أحد.

«اليوم يعودون إلى مدارهم الطبيعى» قالها طلبه وهو يبتسم ابتسامته الماكرة، قبل أن يقطع استرساله صوت انبعث من جهاز التليفزيون، فانتفض صعقاً يمسك بالريموت كونترول ويضغط على زر يزيد قوة الصوت.

ثلاث بنات كالقشدة يتمايلن فى خلاعة بادية، وينثنين وينفردن ويتقصعن بينما تضع كل منهن يديها فى وسط له خواص الملبن غير المحشى، فيما ينشدن فى حماس:

«يا واخدنى تحت باطك يا حبيبى

يا قسمتى وحبى ونصيبى

أنا جوه الأوده

ح ألبس لك موده

من عند كلينتون

اللى فى الروضة

ياى . . ياى . . يااااه

ياى . . ياى . . يوووه» .

ثم يقطع الرقص صوت رجالى جهورى خشن يتحدث فى خطورة قائلاً :

«بيت أزياء كلينتون ٧ ش يوسف الدجوى بالروضة . . .

جمالك اللى جوه . . من كلينتون اللى هوه» .

احتقن وجه طلبه فى غضب ظاهر، بينما احمرّت عيناه حتى بدتا مثل كأسين من الدماء .

«الفاجرات فتحن بيتاً للأزياء، ولم تفكر إحداهن فى السؤال عنى منذ انهارت الشيوعية وحتى اليوم ، لعمرى لم أك مقتنعاً باشتغال النساء فى العمل السياسى ، ولكننى كنت أخشى اتهامى بالرجعية ، على أية حال أثبتت التجربة أنهن ـ جميعاً ـ لا يصلحن ، الآن يفتتحن بيت أزياء كلينتون ، أين النضال المستعر؟! أين الكفاح المشتعل؟!، أين يا حبيبى يا طلبه؟، وماذا فعل بك الكلاب؟ ، ودبابات الدنيا لن تمنع وصول صوتك إلى الجماهير؟! . . سوف أريهن من هو طلبه وستعض كل منهن أصابع الندم مرات ومرات على كل هذه التصرفات التى تتسم بقلة الأصل ، وسيأتين إلىّ زاحفات على البطون يطلبن الرضا والعفو» .

مرة أخرى ينقطع استرسال طلبه، برنين جرس الباب ، نظر فى ساعته فوجد عقاربها تشير إلى تمام الخامسة ، قال فى سره وهو يذهب لفتح الباب : «والله الأولاد مازالوا منضبطين» .

دخل رفاق طلبه تسبقهم علامات استفهام حيرى، وفى عينى كل منهم ألف سؤال عن سبب الدعوة، وسر عجالتها.

دخل طلبه فى الموضوع مباشرة ليمنع أى استرسال فى هذه الحالة الاستفهامية، التى قد تنبىء ـ بحكم طبيعة حالة التساؤل ـ باستقلالية غير مفهومة وغير مرغوبة لدى الرفاق الحائرين، الذين يتساءلون، فى جنون.

«أنا اليوم بصدد بناء دور سياسى جديد، وبمعنى من المعانى سوف يكون هذا الدور هو طوق النجاة لكم، الذى ينتشلكم من حالة البطالة والكساح التى وجدتم أنفسكم أسرى لها.

سوف نكون ليبراليين يا أولاد!

المسألة ـ فقط ـ تقتضى تنظيف ملفاتنا، بمعنى التخلص من المفردات الماركسية المقرفة، وإحلال مفردات ليبرالية مكانها، يعنى ـ ببساطة ـ نلقى فى صندوق الزبالة بكلمات مثل الديالكتيك والقيمة الفائضة والكومبرادور، ونحلّ محلها كلمات جميلة ومضيئة مثل: المجتمع المدنى وحقوق الإنسان والليبرالية.

هل فهمتم يا حلوين؟!».

تجمد الرفاق الثلاثة فى مقاعدهم بينما كانت أصابع أحدهم تعبث بطرف قلم رصاص على المنضدة، وران على الجميع صمت غير الفاهمين، فواصل طلبه شرحه فى اندفاعة شلال دافق:

«لابد ـ أولاً ـ من إعادة قراءة وتفسير أشعارى ومقالاتى السابقة بمرجعية ليبرالية، بدلاً من المرجعية الماركسية البالية، وبالطبع قد تواجهكم بعض صعوبات منهجية ـ بالذات ـ فى قصيدة [فناجين القهوة البعيدة] التى ذكرت

فيها كارل ماركس وتروتسكى صراحة وبالاسم، ولكن قليلا من إعمال الخيال سيؤدى بنا إلى التغلب على مثل هذه الصعوبات ما إذا استبدلنا الاسمين باسمى د. سعيد النجار، ود. سعد الدين إبراهيم».

وواصل طلبه، بينما بدأت أسارير الرفاق فى الانفراج قليلاً بعدما فهموا الخطوط العريضة لنظرية الأستاذ الجديدة:

«كذلك لابد من فهم مختلف للحساسية الجديدة التى أصبحت تعنى تياراً جديداً يتشكل أهم سماته العامة هى تبنى رؤية مغايرة لمجمل الرؤى التى كانت سائدة فى حزبنا وأيديولوجيتنا وإبداعاتنا، فعلى حين كانت الكتابة المستقرة التقليدية ـ التى أصبحت الآن تعنى الكتابة الشيوعية ـ تبدأ برسالة يريد الكاتب أن يقوم بالبرهنة عليها بواسطة عمله الفنى، فإن أصحاب الحساسية الجديدة لابد أن يسعوا لاكتشاف رسالة عبر أعمالهم الليبرالية الجديدة.

الحساسية القديمة، هى حساسية الجربانين، الذين لا يفتأون يمارسون الهرش كلما انتابتهم حالة إبداعية.

أما الحساسية الجديدة فهى حساسية الكرافتات والقمصان والحلل الفاخرة، حساسية الكولونيا والديودورنت والمزاج العالى».

بدت نظرات الرفاق بعد الفقرة الأخيرة، مستريبة متوجسة، فيما قرر طلبه أن يقطع الشك باليقين، ويطعن فى مقتل.

«بصراحة.. يجب أن تتوكلوا على الخير الكريم، وتذهبوا إلى الحمام بالدور، لتستحموا حماما تتحدث عنه الركبان، قبل أى كلام عن دور سياسى جديد، ويجب أن تعلموا أن اقتناع الناس بأنكم أصبحتم ليبراليين يبدأ بهذا الحمام ولا شىء غيره».

انصاع سيف أولاً للأمر، فقد كان أكثرهم انسحاقاً أمام شخصية طلبه الطاغية والأسرة معاً، ومد يده ليتناول من طلبه الليفة والصابونة قبل أن يمضى إلى الحمام منكسراً وحزيناً، وخرج بعد ربع ساعة ليعطيه طلبه ملابسه الجديدة، ثم ينظر إلى نور نظرة مزمجرة ذات شرر، يقوم على أثرها فى خطوات مترددة بينما تطبق قبضته على الفوطة والصابونة .

أما ماهر فقد كان أكثرهم مقاومة للأمر، وحاول أن يشرح لطلبه أن موضوع تخليه عن مبدأ الهرش، ودخوله إلى الحمام يعد انتحاراً سياسياً متكامل الأركان، وإلغاء لحقبة مديدة ومجيدة من تاريخه النضالى والسياسى، إذ لم يستحم ماهر منذ أزمة المجر، وهو لا يرى أن جديداً مهماً قد طرأ على الساحة، يقتضى منه كل هذه النقلة الفكرية، من دون تمهيد للقواعد، أو شرح يتم وفقاً لمبدأ المركزية الديمقراطية الذى تأسس عليه حزب الترقى .

لم يكن لدى طلبه وقت لمثل هذه السفسطائيات العبيطة، فقد أشار بإصبعه فى اتجاه الحمام الذى كان نور قد خرج منه لتوه تتساقط من شعره نقاط الماء، فيما شاعت فى المكان رائحة نظافة عبقرية و موحية .

لم يجد ماهر بداً من الانصياع إلى قرار طلبه الذى أملاه من موقع تصميم كاسح، بحيث لا يستطيع أى نصف عاقل - حتى - أن يتصدى له بالمناقشة أو اللجاج ويضمن سلامته بعد ذلك .

. . . .

جلس الجميع فى أبهى أشكالهم فى الصالون يحتسون كؤوس الويسكى الأسكتلندى الفاخر، ويمزون بالبطارخ البلدى الغارقة فى عصير الليمون البنزهير، بعد أن كان البواب قد جمع ملابسهم القديمة - بناء على تعليمات طلبه - لحرقها فى الخرابة المجاورة .

قال طلبه : «سيف سيتولى مهمة التفسير الليبرالى لأشعارى ومقالاتنا السابقة، وماهر سينضم إلى جميع منظمات حقوق الإنسان على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، أما نور فسيكمل معى الاتصال بالمنظمات والمراكز والجمعيات التى تتبنى مفاهيم الليبرالية والمجتمع المدنى، كما سوف نتابع نتيجة اتصالاتنا بالحكومة والأحزاب والتشكيلات السياسية».

. . . .

«والله زمان». .

قالها الرفاق الثلاثة معاً وهم يهبطون الدرج مترنحين بعد سهرتهم مع الأستاذ، وكل منهم يشعر وكأنه وُلِد من جديد.

بانادِى عَليك

العبور من شارع البطل أحمد عبد العزيز فى المهندسين إلى أى من الشوارع الجانبية المتفرعة منه، أشبه بالانتقال من مدينة إلى أخرى.

وحتى لحظة كتابة هذه السطور، لم يقدم أى من كتاب الوطن ومفكريه وسياسييه أى تفسير مقبول أو مقنع لإطلاق اسم الفدائى العظيم على هذا الشارع بالذات، الذى تسوده مظاهر للحياة الاجتماعية، ويحفل بألوان من النشاطات التجارية والدكاكين، وتمارس فيه وعبره ألوان من السلوكات اليومية لا علاقة لها ـ البتة ـ بموضوع كفاح البطل المذكور.

بالطبع ليس مطلوباً من الناس حين يقطنون شارعاً يحمل اسم فدائى، أن ينزلوا كل يوم إلى أعمالهم حاملين الرشاشات والقنابل اليدوية، أو أن يجتازوا أماكن عبور المشاة من تحت سلك شائك، أو تنتظر الأمهات عودة أطفالهن من المدارس فى البلكونات حاملات الأعلام المصرية، وأجهزة كاسيت تذيع مارشات عسكرية.

ولكنها ملاحظة على ما نتصوره تكريماً، بإطلاق أسماء الأبطال على الشوارع، ونحن لا ندرى أننا بهذا نهين ذكراهم، حين يكون الشارع ليس على قد مقام البطولة.

الضجيج صاخب ينبعث من محلات الكاسيت، ويؤثر على اتزان الجميع النفسى، ويربك إيقاع الخطو على الرصيف، الكل يهتز، فصيل

ترتبط اهتزازاته بمادونا ومايكل جاكسون وويني هيوستون، وآخر ترتبط اهتزازاته بعمرو دياب وراغب علامة ولطيفة، وثالث يهتز على إيقاعات خليجية سريعة ومتكررة، ورابع يهتز من تلقاء نفسه ولأسباب ـ في الغالب ـ ليست موسيقية أو غنائية!

الأضواء تتلألأ، وتنعكس بألوانها الفاقعة على الجميع، وأصوات آلات التنبيه تضفي على المكان هوساً ملتاثاً يرفع مستوى العصبية الجماعية إلى نقطة حدها الأقصى.

صفقات من كل لون تعقد في الطريق العام، تبدأ بمساومة فتاة ليل، وتنتهي بمحاولة بيع كلب.

وحول هذا كله ثرثرات متناثرة، وصراخ أطفال، وأحاديث متقاطعة عن ساندوتشات الهامبورجر، والولد الذي يصر على شراء ثلاث بالونات مرة واحدة، والآيس كريم الذي سقط على ذيل الفستان المهدى إلى فتاة من أختها التي تعمل في الإمارات، والذي لم تلبسه سوى لبسة واحدة.

. . . .

ولكن حين تدلف إلى شارع عبد الحميد لطفي تشعر بأنك انتقلت ـ بالفعل ـ إلى مدينة أخرى.

بضع بنايات أنيقة، وأشجار باسقة على الصفين، وسيارات متراصة على جانبيه محيلة إياه إلى ما يشبه الجراج الخاص لسكان البنايات.

عربة زستافا كالحة لا لون لها ـ تقريباً ـ تتلكأ متسكعة على هدى إضاءة جانب واحد من أنوارها الأمامية، ثم تجد لها مكاناً تنحشر فيه بصعوبة وسط السيارات المتراصة.

قائد السيارة يبذل جهداً مضنياً (كما هو واضح من حركته العصبية) فى فتح بابها، ثم يحاول إغلاقه بعد خروجه منها بصعوبة أكبر استلزمت رقعه ثلاث رقعات متوالية وصاخبة.

الرجل يسير - فى تردد - متوجهاً - إلى سيارة بيجو ٦٠٥ موديل ١٩٨٩ أخذت مكانها إلى جانب الطوار المواجه وأطفأت أنوارها تماماً، وحين يصل إلى بقعة مضيئة بجوار أحد أعمدة النور، تظهر ملامحه بوضوح، نور أحمد السعيد.. أحد العناصر الرئيسية فى الجهاز الخاص لطلبه هريدى.

وبعد طول تلفت يميل نور على زجاج نافذة سيارة طلبه الذى كان مفتوحاً حتى منتصفه.

- «تمام يا أستاذ.. هذا هو عنوان جمعية النداء الجديد.. ١٤ ش عبد الحميد لطفى.. وباقى ربع ساعة على وصول الدكتور سعيد النجار».

....

اختيار جمعية النداء الجديد كساحة تضاف إلى الساحات التى يمد طلبه إليها خيوط التواصل، لم يكن صدفة على وجه الإطلاق.

فالنداء الجديد مذ تأسست كجمعية ثقافية تسعى إلى نشر الثقافة الليبرالية فى السياسة والاقتصاد، ومذ أُشهرت فى وزارة الشئون الاجتماعية بتاريخ [٣ أغسطس ١٩٩١]، وهى تقدم نفسها فى المحافل العامة، ويقدم أعضاؤها أنفسهم فى ذات المحافل بوصفها وبوصفهم، رموز الليبرالية الجديدة فى مصر.

وإذا كان طلبه يود سحب غطاء ليبرالى على دوره السياسى الجديد، خصوصاً بعد ما ينتظره من نتائج لاتصالاته مع القوى والتشكيلات

والأحزاب السياسية، وخصوصاً أكثر بعدما تصوره من نتائج لمقابلته مع السفير الأمريكى - فإن من المحتم عليه أن يدخل إلى ساحة هذه الجمعية، ويكتسب من خلالها قوة مضافة فى ظهوره العام، ويكتسب - أيضاً - بعض الوجاهة الاجتماعية الملائمة، بالإضافة إلى أنها ستكون قناة مناسبة لإقامة جسور علاقة مع بعض رجال الأعمال من أعضائها والمنتسبين إلى تجمعات رجال الأعمال المختلفة فى البلاد، وفوق هذا كله فقد سمع عن تمويل للجمعية من U.N.D.P (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة)، يعنى الموضوع فيه أموال أيضاً، وربما ينوبه من الحظ جانب، وبخاصة إذا نجح فى إقناع د. سعيد النجار رئيس الجمعية بأهمية دوره السياسى الجديد فى دعم التنمية البشرية التى تعد مسوغاً معتبراً للحصول على تمويل الـ U.N.D.P

أما عن التكلفة السياسية التى سيتجشمها طلبه من جراء دخوله المقتحم لهذه الساحة، فإنها لن تتجاوز إجراء عرض علنى فى «الإستربيتيز» السياسى أمام بعض الأعضاء الثقاة فى الجمعية، يعلن فيه تنكره لكل مبادئه السياسية السابقة، ويسب عناصر ثقافته السياسية الأولى على المسبحة، ولا بأس - بالإضافة إلى ذلك - من لعن أباخاش المواطن جمال عبد الناصر حسين بوصفه المسئول عن كل الكوارث التى حاقت بهذا الوطن، وكل الكوارث التى قد تحيق - بعيد الشر - به.

مد طلبه يده بجهاز اتصال صغير - من النوع الذى تستخدمه الشرطة وشركات الأمن الخاصة - إلى نور وقال له فى همس:

«عليك بالاتجاه - الآن - إلى موقعك الذى حددته لك واستمر فى المراقبة والاتصال.. صحيح أننى أخذت موعداً من إيمان سكرتيرة الدكتور سعيد، ولكننى أخشى أن يتملص من الموعد نتيجة معرفته بتاريخى السابق، وأنا لا أود أن أترك أية تفصيله للصدف أو الظروف أو الاحتمالات».

حيا نور الأستاذ بتحية شبه عسكرية وهو يتسلم منه الجهاز، واتجه فى خطوات نشطة ليختبئ وراء إحدى الأشجار، فيما كانت سيارة داكنة تأخذ وضعها فى منطقة الانتظار ليخرج منها عملاق طويل ذو شعر ناعم اختلط فيه الأسود بالأبيض.

رفع نور الجهاز بالقرب من فمه بسرعة وبدأ الارسال :

«آلو . . نور ينادى . . الهدف وصل . . الهدف وصل ويتجه بسرعة إلى البناية . . حوّل . . ».

وعلى الفور جاءت الإجابة إلى نور عبر ذات الجهاز:

«آلو . طلبه ينادى . . يا حمار . . أولاً أنت تقف أمام البناية رقم ١٦ وجمعية النداء الجديد فى البناية رقم ١٤ . . وثانياً يا حمار. السيارة التى وصلت أمامك ريجاتا كحلى بينما سيارة د. سعيد النجار ستيشن بيجو بيج بنمر هيئة سياسية معارة من U.N.D.P . . وثالثاً يا حمار أيضاً الشخص العملاق الذى نزل أمامك هو مصطفى حسين رئيس تحرير مجلة كاريكاتير وهو يتجه بسرعة إلى مقر المجلة فى البناية رقم ١٦ القريبة من الهدف لأنه جاء متأخراً على حوالى عشرة مواعيد ضربها لإناس لا يعرفهم . . فهمت يا حمار . . حوّل».

«آلوم نور ينادى فهمت يا أستاذ . . حّول».

ووسط هذا الجدل اللاسلكى المحتدم كان قُول من السيارات الخاصة يتقدم فى شارع عبد الحميد لطفى، ويضم ثلاث عربات فتحت أنوارها الأمامية العالية، وتوقفت جميعاً أمام البناية رقم ١٤، إحداها البيجو ستيشن المعروفة نزل منها د. سعيد النجار يحمل ملفاً ضخماً، والثانية سويفت نبيتى

نزل منها الدكتور وحيد عبد المجيد الذى يحرر نشرة الجمعية، والثالثة لادا سوداء نزل منها الدكتور أسامة الغزالى حرب مدير الجمعية يحمل حقيبته السامسونيت الضخمة التى يصعب على إنسان أن يعثر فيها على أى شىء يريده.

تبادل الثلاثة بضع كلمات سريعة على سبيل الونس، ثم مضوا إلى الدرج يصعدونه، فيما كان د. أسامة يصلح وضع رابطة عنقه بيد واحدة، بينما كان د. وحيد يضغط قنطرة نظارته الطبية على أنفه وهو يضحك بحبور على تعليق لم يسمعه للدكتور سعيد النجار.

نور يتحدث فى جهاز الإرسال:

«ألو.. نور ينادى.. هل هؤلاء هم المقصودون يا أستاذ؟.. حوّل».

وجاءته نفس الإجابة السريعة:

«ألو.. طلبه ينادى.. نعم هم المقصودون يا حمار.. اتبعنى إلى السلالم الآن.. حوّل».

فتحت إيمان عبده الباب، بعد رنة جرس رقيقة وقصيرة تعمدها طلبه لإضفاء مزيد من الأناقة على جو اللقاء.

قدم طلبه نفسه إلى إيمان عبده السكرتيرة ثم تبعها ومن خلفه نور، حيث أدخلتهم إلى صالون الجمعية الذى توسط مجلسه د. سعيد النجار وبجواره د. أسامة الغزالى حرب ود. وحيد عبد المجيد، وعلى مقعدين جانبيين جلس الدكتور حازم الببلاوى والدكتور محمود أباظة يتساران فى حديث طويل، بينما أخذ الدكتور شريف لطفى موقعه على فوتيل كبير، وجلست مجموعة غرفة التجارة المصرية - الأمريكية على أريكة بعيدة، وتبين طلبه منهم محمد شفيق جبر وعمر مهنا.

صافح طلبه الجميع وهو يثبت عينيه فى عينى كل منهم (وهى طريقة تأثير معروفة للإيحاء لكل شخص من الموجودين بأنه يقصده بالزيارة واللقاء بالإضافة إلى أنها تخلق لوناً من الألفة والتعاطف الشخصى بغض النظر عن وجود صلة أو معرفة سابقة، وقد كانت أول خبرة لطلبه بهذه الطريقة الجهنمية من خلال رحلات وفود حزب الترقى إلى موسكو وبوخارست وبودابست وبراغ، حيث كان الطرفان ـ الزائر والمضيف ـ لا يجيدان لغة مشتركة، ومن ثم يكتفيان فى جميع فصول الزيارة، بالمصافحة العنيفة بكلتا اليدين، وتثبيت النظرات على العيون وبعد ذلك تبادل الأنخاب).

قال د. سعيد النجار:

«أهلاً يا أخ طلبه. . ماذا تفعل الآن؟».

التقطت أذن طلبه كلمات السؤال بالحساسية اللازمة، وفهم الشاعر أن السؤال يعنى الإشارة إلى حالة الضياع التى يفترض الدكتور سعيد، أن طلبه سقط فيها، بعد انهيار الشيوعية، فعقد طلبه العزم على أن يدخل فى الموضوع لكى يفوّت الفرصة على أية تحرشات جانبية، وليضع الدكتور سعيد النجار ـ منذ البداية المبكرة ـ أمام حقيقة التغير الضخم الذى حدث فى الموقع الفكرى لطلبه والذى يمارس النقاش من خلاله الآن:

«دكتور سعيد . . حقيقة إن الليبراليين من أمثالنا. .»

فغر الدكتور سعيد النجار فاه وهو يستمع إلى طلبه بذهول وقبل أن ينبس ببنت شفاه، كان طلبه يواصل مثل الديزل:

«. . لابد أن يتكاتفوا جميعاً فى مواجهة التحديات التى برزت ـ بقوة ـ خلال الآونة الأخيرة. . وبداية أود التنويه عن أن تاريخى السابق لا ينبغى أن يقف حجر عثرة أمام ارتباطى بالتيار الليبرالى، أو انضمامى للجمعية الموقرة، ففى الواقع لقد جئت لأتوب على يديك عن الشيوعية».

وهنا تدخل الدكتور أسامة الغزالى قائلا :

«التوبة لا تكفى يا أستاذ طلبه . . هذا أمر ليس هناك أسهل منه فى الغرف المغلقة . . إذا أردت التوبة النصوح الحقيقية فينبغى أن يكون ذلك على شريط فيديو يذاع على الناس . . ونسميه شريط «الشيوعى التائب» .

أمن الدكتور سعيد النجار بفرح فخور على كلام الدكتور أسامة ، ونظر إلى طلبه كمن ينتظر رد فعله على موضوع الشريط .

إلا أن طلبه راوغ الجميع وأعطاهم إجابة غير متوقعة :

«أنا على أتم استعداد لموضوع الشريط بل وعلى استعداد لتقديم عرض حى Life Show أمام أى مجموعة تريدون من المفكرين المصريين أو الأجانب» .

ثم أردف :

«ولكن هذا ليس بيت القصيد، فقد جئت إليك بمجموعة من المقترحات لتنظيم عمل الجمعية فى المرحلة المقبلة أرجو أن تسمح لى بعرضها عليك منفرداً» .

كان طلبه يعلم أن الدكتور وحيد عبد المجيد رجل جوانى وحويط ، ولن يقدم أى رد فعل علنى على مقترحاته سوى الضحك الذى يتراوح بين الابتسامة الخفيفة والقهقهة المجلجلة ، أما الدكتور أسامة الغزالى فهو رجل ذو طموح سياسى جامح وله حسبته المعقدة ، ولن يتجاوب مع مشروع طلبه إلا بعد دراسة متأنية ومستفيضة لمدى تطابق بنود مشروع طلبه على مشروعه الشخصى الطموح .

وبالنسبة للدكتور شريف لطفى فهو رجل مؤمن بنقاء العضوية فى هذه الجمعية وسوف يرى ـ بالضرورة ـ أن الجمعية لا تحتاج إلى مثل هذه الإضافات الرثة، أما جماعة الغرفة المصرية ـ الأمريكية فلن يلفت نظرها فى الموضوع برمته سوى حكاية اللقاء مع السفير الأمريكى، وأخيراً فإن د. حازم الببلاوى ود. محمود أباظة مازالا يتساران وسيظلان كذلك حتى نهاية القعدة.

ومن ثم فإن الانفراد بالدكتور سعيد النجار قد يصل بطلبه إلى مراده ومناه من دون الدخول فى تفريعات بائخة.

قام الدكتور سعيد من مكانه ليختلى بطلبه حيث جلس، وأخرج طلبه من حقيبته ملفاً من البلاستيك فيه أوراق بدأ بعرضها على الدكتور النجار وهو يهمس:

«أولاً: لابد من اعتماد نشيد للجمعية يحقق لوناً من وحدة الشكل أمام الجماهير، ويشعر الأعضاء بالولاء والانتماء وخصوصاً بعدما سمعنا ـ جميعاً ـ عن أن بعض المارقين قدموا استقالاتهم فى عام ١٩٩٤، وأنا أقترح رائعة فريد الأطرش «بانادى عليك» لتصبح نشيداً معتمداً لجمعية النداء الجديد، على أن يقوم الدكتور مصطفى ناجى أو المايسترو سليم سحاب بعمل توزيع أوركسترالى جديد لها، وعلى أن يلتزم أعضاء الجمعية بالغناء الجماعى للنشيد فى كل المناسبات وخصوصاً الجزء الأول الذى كان المرحوم فريد الأطرش يتأوه فيه، إذ أن التأوه ـ بمعنى من المعانى ـ يرتبط برسالة الجمعية فى تحرير الإنسان من عناصر تأوهه».

كانت كل علامات الدهشة المشوبة بالإشمئناط قد ارتسمت على ملامح وجه الدكتور سعيد النجار، بينما تزايد إصرار طلبه على عدم منحه فرصة واحدة للاعتراض، أو المناقشة، فواصل فى سخونة فواره:

«وثانياً: لابد من التخلص من كل أعداء الجمعية دفعة واحدة، وبالذات هؤلاء الذين احترفوا التلسين على الجمعية وإغتيابها، ورميها بالباطل، وكذلك هؤلاء الذين بدت عليهم بعض علامات استقلالية مقيتة، وأيضاً هؤلاء البائخون الذين يطالبون بأن تكون الجمعية فكرية ولا يسيطر عليها رجال الأعمال.

وهناك طريقتان للتخلص من هذه العناصر:

(أ) يتم اختطافهم جميعاً غيلة والاحتفاظ بهم كرهائن فى غرفة أمينة مغلقة، ونظراً لعدم وجود غرفة بالمواصفات المطلوبة سوى غرفة التجارة المصرية ـ الأمريكية فأنا ارشحها كمكان لاحتجاز الرهائن، على أن نقوم بالمساومة على الإفراج عنهم مقابل تنفيذ الحكومة لبرنامج إصلاح سياسى نحدده لها.

(ب) أن نلفق لهم قضية تشكيل تنظيم دينى متطرف يهدف إلى الحض على كراهية نظام الحكم ويعمل على تهييج المشاعر والأفكار.

وصحيح أننا سنواجه فى هذا السياق بعض مشاكل منهجية بسيطة مثل أن الدكتورة منى مكرم عبيد يستحيل إثبات تهمة التطرف الدينى والارتباط بجماعات الإسلام السياسى عليها، إلا أن مثل هذه الأمور ستمر على الذهن العام ببساطة فالناس لم تعد تدقق».

استشاط الدكتور سعيد النجار غضباً وهو يستمع إلى هلاوس طلبه وبدا وكأنه أمام مفترق طرق تاريخى فى حياته، إذ أوشك على التخلى الكامل عن ليبراليته ليواجه طلبه بما يجب أن يواجهه به، إلا أن طلبه كان يواصل الحديث بشكل يصعب إيقافه!

«وثالثاً: فأنا أظن أن التحاق الجمعية بمشروعى، وليس التحاقى بمشروعها هو الأمر المطروح، فأنا الوحيد الذى سأواجه خصومك داخل

الجمعية وأضعهم فى حجمهم الطبيعى، انظر إلى كل المحيطين بنا، انظر إلى نظرات عيونهم، إنهم مخيفون، يجب أن تحترس منهم (كانت هذه ـ بالضبط ـ هى الخطة التى اتبعها طلبه من قبل مع رئيس حزب الترقى حين أخافه من أعوانه وأكد له أنه الوحيد الذى يستطيع الاعتماد عليه) سوف أحجمهم لك، فأنا مقدم على بناء دور سياسى يتجاوز كل هؤلاء، وستجدهم من خلفنا يطلبون الرضاء فى كل لحظة، ثم إن دورى السياسى الجديد يتم بمباركة ورعاية السفير الأمريكى، مستر إدوارد ووكر. . . ».

وتأكيداً على المعنى عض طلبه شفته السفلية بأسنانه .

كان غضب الدكتور سعيد قد بدأ يتلاشى مع الفقرة ثالثاً، وفى منتصفها ـ تقريباً ـ ابتسم، وفى آخرها كان يقهقه بصوت مسموع، ويصافح طلبه ثم يسحبه من يده إلى منتصف الغرفة، ويقول بصوت عال :

«يا جماعة . . أقدم لكم الأستاذ طلبه هريدى عضو الجمعية الجديد» !!

ابن ستّين خلدون

سلة المهملات فى منزل طلبة إمتلأت عن آخرها بأوراق ممزقة، وتناثرت حولها ـ كذلك ـ عشرات من الصفحات المكرمشة التى تبدو وكأنها أخرجت ـ لتوها ـ من فم كلب!

ماهر عبد الهادى وسيف صلاح الدين يجلسان على كرسيين من كراسى السفرة ، وقد علق أحدهما الجاكيت على ظهر الكرسى ، بينما ألقى الآخر بسترته على المنضدة .

ماهر شمّر عن ساعديه المشعرين، فيما ضغطت أطراف أصابع يده اليمنى التى تعلوها صفرة النيكوتين على عقب سيجارة ـ بعصبية ـ فى الطفاية الفضية ، حتى تأكد بما لا يدع مجالاً للشك من أنه أزهق روحه تماماً .

سيف ينظر إلى ساعته كل دقيقة ـ فى قلق بادٍ ـ بينما إحدى ساقيه ترتكز على مشط قدمه مهتزة إهتزازاً منظماً وسريعاً، يشيع فى المكان جواً إضافياً من التوتر المجنون .

ورقة أخرى يطبق ماهر عليها قبضته ليحيلها كرة مضعضعة، ثم يلقيها فى إتجاه سلة المهملات، لتقفز قفزة واحدة ثم تتدحرج لتستقر إلى جوار سابقتها .

«لابد أن ننتهى من كتابة التقرير حول مركز إبن خلدون قبل أن يعود الأستاذ ومعه نور» قالها سيف برعشة خوف حقيقية، فهو يعلم أن طلبة ـ وهو يتحرك فى سبيل بناء دوره السياسى الجديد ـ يجب أن يكون متسلحاً

بأكبر قدر من المعلومات، وأن رأيه فى نور يتلخص فى كلمة واحدة: حمار، وأحياناً يضيف عليه كلمة: جداً.

وعلى الرغم من أن المهمة الأساسية التى أوكلت لماهر وسيف كانت التفسير الليبرالى لأشعار ومقالات طلبة، ثم التحرك فى أوساط منظمات حقوق الإنسان، على حين كانت المهمة التى أوكلت لنور أحمد السعيد هى معاونة الأستاذ فى التحرك فى بقية مراكز البحوث، وتلقى ردود فعل الأحزاب والمنظمات والتشكيلات السياسية.

إلا أن غباوة نور التى انتقلت وتطورت ببراعة غير مسبوقة، من مرحلة تجلى الغباوة، إلى مرحلة سطوع الغباوة، جعلت من الصعوبة بمكان استمرار اعتماد طلبة عليه كمعاون وحيد.

ومن ثم كان لجوؤه لماهر وسيف ليقوما بالأعمال التى يعجز حمار كنور عن القيام بها، أو النهوض بتبعاتها.

الأخبار التى جمعها ماهر وسيف كانت كافية لبناء قاعدة معلومات مناسبة عن مركز إبن خلدون، وأية ثغرات أو فراغات تُترك لعبقرية الأستاذ القادرة ـ فى لمح البصر ـ على ملئها وسدها.

المركز تأسس فى عام ١٩٨٨ كشركة توصية بسيطة برقم ٣٠٤٤، وشغلته هى التخطيط ودراسات الجدوى والتدريب والمؤتمرات والنشر والإعلام، واسمه الكامل: مركز أبن خلدون للدراسات الإنمائية، ويصدر نشرة شهرية باسم «المجتمع المدنى»، وفلسفته تقوم على ربط البحوث فى العلوم الإجتماعية ببلورة السياسات العامة، ويحرص على التعاون مع المراكز والمؤسسات البحثية والعلمية الأجنبية فى بحوث مشتركة، وأهم هذه المراكز والمؤسسات هى: منظمة العمل الدولية، واليونسكو، وفورد فونديشن، والسوق الأوروبية المشتركة، ومنظمة البحث عن أرضية مشتركة Common ground ، ومؤسسة دعم الديمقراطية فى واشنن American endoument

for democracy ودار سعاد الصباح (قبل أن يجرى ما جرى).

نظر سيف إلى ماهر ـ بنظرة الفاهمين العارفين ـ قائلا: «أظن هذا يكفى والبركة فى الأستاذ فيما يستجد».

فأمن ماهر بهزة رأس يتقنها الفاهمون العارفون أيضاً.

صوت مفتاح يعبث فى مزلاج باب شقة طلبة، قطع كل هذه المشاورات، ثم انفتح الباب ليدخل طلبة بخطواته السريعة يفرك يديه فى تفاؤل ونشاط، ومن خلفه نور الذى لم يعرف ماذا يفعل، فأخذ يفرك يديه هو الآخر متظاهراً بالتفاؤل والنشاط.

مد طلبة يده ليلتقط تفاحة حمراء لامعة من طبق فاكهة يتوسط منضدة السفرة، بينما اجتاح الأوراق بنظراته المتلصصة المعروفة، وهو يهز رأسه بسعادة وارتياح.

«نور. اليوم الثلاثاء.. لا وقت عندنا يجب أن نذهب إلى مركز ابن خلدون فى المقطم قبل الثالثة.. هذا هو أفضل موعد نلتقى فيه الدكتور سعد الدين إبراهيم مدير المركز. وسأفهمك كل شىء فى الطريق.. شكراً يا أولاد المعلومات كافية.. إنتظروا عودتنا وجهزوا القعدة.. الويسكى فى الصالون، والبواب سيحضر المزات وعليك بإعدادها يا سيف.. أعرف أنك ورثت قدراً لا بأس به من عبقريتى فى هذا المجال.. سلام».

١٧ ش ١٢، ص. ب/ ١٣.

«يا قوة الله أهذا عنوان أم شفرة؟!» قالها طلبة لنفسه وهو يتأمل بعض الأوراق، بينما نور يقود سيارة الأستاذ البيجو ٦٠٥ موديل ١٩٨٩، وهو يصعد مطلع المقطم، والطريق يتلوى تحت إطارات السيارة كثعبان فزع، وطلبة ـ فى كل دقيقة ـ يستحث نور على الإسراع.

وما إن استقرت العربة أمام الفيللا المقصودة وتأكد طلبة من ذلك، بعد أن قرأ اسم المركز على لوحة مثبتة فوق أحد أعمدة المدخل، حتى نزل من

السيارة ـ فى خفة القط ـ أما نور فلم يكن يعرف ماذا يفعل، فنزل هو الآخر فى خفة لم يعرف تحديدا ما إذا كانت لقط أو لأى حيوان آخر، وبخاصة أن الاستاذ كان دائماً ما يناديه بالحمار، إلا أن الحمار لم يوصف أبداً فى التراث العربى كله بالخفة.

على أية حال نزل نور بخفة ما، سيترك لطلبة ـ بعد ذلك ـ وصفها بالوصف المناسب.

فتح طلبة حقيبة السيارة الخلفية، وأخرج منها علبة ملفوفة كهدية، وحبل كبير، وزلطة لامعة ضخمة، بينما نور يبربش بعينيه غير مدرك لأبعاد خطة الأستاذ.

قفز طلبة على درجات سلم المدخل، ثم رن الجرس نفس الرنة الأنيقة القصيرة التى تعودها فى مثل هذه المناسبات.

فتحت الباب فتاة يافعة، قدم نفسه إليها، فقالت:

«إيفت فايز».

بادرها طلبة بالسؤال: «أهذا ١٧ ش ١٢، ص. ب/ ١٣»، فهزت رأسها بإيماءة موافقة فقال:

«قولى للدكتور سعد الفله فى الفانلة».

لم يلحظ طلبة ـ بالطبع ـ الذهول البادى على الفتاة، فقد كان محتلاً بفكرة أن هذه شفرة وليست عنوانا، ومن ثم أراد أن يبادل الدكتور سعد شفرة بشفرة، حتى يشعره إنه ـ أيضاً ـ خطير.

وتركته الفتاة للحظات كانت كافية ليجتاح المكان بنظرته التلصصية، ويرى أعداد نشرة «المجتمع المدنى» موضوعة بعناية على رف فى المدخل.

«ها هااه.. إذن هو يهتم بحكاية المجتمع المدنى. هذا سوف يكون مدخلى إليه» قالها طلبة لنفسه وهو يبتسم، قبل أن تعود إيفت تدعوه إلى

الدخول وهى تلقى بنظرة مستغربة ذاهلة على الحبل والزلطة والهدية التى يحملها نور.

وفى المدخل تحلقت حول منضدة الاجتماعات مجموعة من الكراسى الزرقاء ذات العجلات، جلس عليها بعض الشباب، وعلى رأس المائدة كان الدكتور سعد الدين إبراهيم، أو سعد الدين محمد إبراهيم (كما ورد اسمه فى الأوراق التى جمعها ماهر وسيف)، وعلى المنضدة رُصت لفافات مفتوحة من الكباب والكفتة والسلاطات متنوعة الدرجة والمستوى، وتعلقت عيون الجميع بطلبة ونور، بينما ألقى الدكتور سعد فى اتجاههما بنظرة من فوق إطار نظارته الطبية المذهب، فيما كانت أصابعه تعبث بشعيرات ذقنه الكثة.

قدم الدكتور سعد الدين إبراهيم الشباب الجالسين إلى طلبة: «سليمان شفيق.. أشرف بيدس.. سامح فوزى.. علاء سلامة.. أسامة حسن.. خالد فياض.. سعيد عبد المسيح.. كريم صبحى.. وطبعاً تعارفتما وإيفت فايز التى فتحت لكما الباب.. تفضلا».

لم يكن اختيار طلبة ليوم الثلاثاء موعداً لزيارته للمركز من قبيل المصادفة، ولم يكن حثه لنور على الإسراع حتى يصل قبل الساعة الثالثة من قبيل المصادفة أيضاً، إذ كان طلبة قد عرف ـ بطرقه الخاصة ـ أن هذا ـ بالضبط ـ هو الموعد الأسبوعى الذى يولم فيه الدكتور سعد الدين إبراهيم للشباب العاملين معه، وأن الغذاء ـ غالباً ـ ما يكون من الكباب والكفتة وهما اللذان يعشقهما طلبة عشقاً مشبوباً حتى أن يقيناً داخلياً خالصاً نما فى أعماقه، مؤكداً أنه ينتمى إلى طائفة «السيخ»!

بدأ طلبة يتحرك على مائدة الاجتماعات / السفرة برشاقة بالغة، فيما يحاول أن يشغل الجميع عن شراهته بالحديث فى أى موضوع وفى أى إتجاه، وقد لاحظ أن صوت موسيقى كلاسيك ينبعث بخفوت من مسجل على أرضية الغرفة، فقال للدكتور سعد الذى كان ما زال يعبث بشعيرات ذقنه الكثة وينظر إلى طلبة فى استرابة متوجسة:

«أنا أيضاً أحب الموسيقى جداً وقد بدأت علاقتى بها على يد فرقة العلم المصرى لصاحبها المعلم فهمى على بشنتنا الحجر، وكنا نستأجرها فى المناسبات الكبرى فى القرية، حيث يأتى أعضاؤها مرتدين سترات [سكاند هاند] اشتروها من بعض العاملين فى سكك حديد جمهورية مصر، بينما أزرارها النحاسية تحمل حروف س.ح.ج.م إشارة إلى مصدرها الأصلى، وكانت للمعلم فهمى على مقطوعة جميلة بعنوان (أفراح الأنجال) يعزفها على الساكسفون، فيمتلئ فمه بالهواء، فيما تطبق عينه الوحيدة بشكل متقطع عصبى، مع انتهاء كل جملة موسيقية، هل تتذكر هذه المقطوعة يا دكتور سعد؟!».

كان الدكتور سعد إبراهيم ما زال مستغرقاً فى النظر إلى طلبة، ولم يجبه بحرف واحد، فيما اندمج طلبة فى محاولته للتذكير بمقطوعة «أفراح الأنجال» وبدأ يدندن:

«ترن ترن تربيمبم بم.. تربيتتو... تربيتتى».

لاحظ طلبة أن سكوناً مخيفاً خيم على المكان، فتراجع عن تدفقه، منتظراً لحظة تناول الشاى ليطرح مشروعه على الدكتور سعد.

ولم يطل انتظار طلبة، فقد دعاه الدكتور سعد للانتقال إلى قاعة مجاورة رُصت فيها بعض مقاعد البامبو لتناول الشاى، وكان طلبة يدرك أن الدكتور سعد رجل أريب، والأريب منك بعيد كما هو معروف، فأراد أن يذيب الجليد بينهما بحركة عاطفية مباغتة، فالتقط علبة الهدية من نور، ومد ذراعيه بها فى اتجاه الدكتور سعد قائلاً:

«كل سنة وإنت طيب.. سنة حلوة يا جميل.. أنا أعرف أن عيد ميلادك السابع والخمسين فى ٣ ديسمبر وباق عليه تسعة شهور، ولكن لا بأس أن نحتفل به الآن، وربنا يجعل أيامنا كلها أعياداً».

كانت عيون الشباب المتجمعين فى غرفة الاجتماعات ترقب المشهد فى فضول حار، بينما تعلو همهماتهم كلما أتى طلبة بفعل جديد، والدكتور سعد إبراهيم لا ينطق بكلمة واحدة، ووجهه يبدو وكأنه قد من صخر.

قرر طلبة أن يطور الهجوم ويدفع إلى الدكتور سعد بكل فيالقه دفعة واحدة حتى يضمن استسلامه فقال:

«أنا أقرب الناس لأفكارك، وأقدر العناصر السياسية على الاندماج فى مشاريعك، وسوف يكون دورى السياسى الجديد، الذى أنا بصدد بنائه، هو أكبر ظهير لك يوم قل الظهير، ولعلك تلحظ الحبل الذى يحمله مساعدى، هذا الحبل هو أكبر دليل على إيمانى بفلسفة المركز القائمة على (ربط) العلوم الاجتماعية ببلورة السياسات العامة، كما إننى من أشد المؤمنين بأفكار المجتمع المدنى، الذى يعنى مجموعة النشاطات الطوعية التى تقع فيما بعد الأسرة، وفيما قبل الحزب، ونظراً لأننى لم تكن لدىّ أسرة طوال حياتى، كما لم يصبح لدىّ حزب بعد انهيار الشيوعية، فإننى غير قادر على تحديد المنطقة التى تقع بينهما، وهى - بالضرورة - منطقة المجتمع المدنى، ولذلك أتيت لك بهذه الزلطة اللامعة الجميلة لتصبح علامة طريق، إذا ما وضعتها لى فى أى مكان، سيصبح هو المجتمع المدنى المقصود، بغض النظر عن تحديد موقع الأسرة أو موقع الحزب، وبحيث استطيع أن أمارس دورى السياسى حول الزلطة، متأكداً من أننى أمارسه فى المجتمع المدنى أيضاً، وإضافة إلى كل ما سبق فإننى تأكدت من التصاقى بأفكارك بعد صدور كتابك الأشهر (الملل والنحل والأعراق) إذا وجدت أن هذا الكتاب - كما هو واضح من عنوانه - أكبر معبر عن زمرتى السياسية التى (تتململ) تململاً سياسياً واضحاً الآن، بعدما (انتحل) وبرها بسقوط الدولة الأم، أما موضوع (الأعراق) فليس لخبرتنا فيه نظير، وشمة واحدة من أى أنف متوسط الحساسية فى أحد اجتماعات الحزب تشى بأننا من أفضل منتجى الأعراق فى البلاد، وكإضافة أخيرة - لتأكيد كل المعانى السابقة - فقد علمت أنك كنت

بصدد عقد مؤتمر فى ١٢ ـ ١٤ مايو ١٩٩٤ تحت عنوان: «مؤتمر حول إعلان الأمم المتحدة لحقوق الأقليات وشعوب الوطن العربى والشرق الأوسط»، بالاشتراك مع جمعية حقوق الأقليات Minorities rights group ، وهى الجمعية التى تضم اسمك كعضو فى مجلس إدارتها، وهى ـ أيضاً ـ التى وصفها عدونا المشترك الأستاذ السيد ياسين بأنها (جمعية مجهولة المنشأ غير معروفة الاتجاه)، وإذا كان اهتمامك بالأقليات قد وصل إلى هذا الحد، فمن غير حزبنا، حزب الترقى، وأعضائه يمثل الأقلية؟!، لقد كنا أكثر الأحزاب التصاقاً بمفهوم الأقلية فى تاريخ البلاد السياسى، حيث لم يحصل حزبنا على صوت واحد فى أية انتخابات نيابية خاضها، بما فى ذلك أصوات أعضاء الحزب أنفسهم».

التقط طلبة أنفاسه المتقطعة بصعوبة بعد هذه الخطبة المجلجلة، ونظر إلى الدكتور سعد الدين إبراهيم منتظراً رد فعله، الذى لم يأت أبداً، فواصل طلبة محاولاً تحقيق أى ثغرة فى حائط برلين الذى بناه الدكتور سعد بينهما:

«ثم أننى أعرف غرامك بالتقسيمات حين قسمت المفكرين إلى ناس مع التاريخ وناس ضد التاريخ، وكنت قد قسمتهم من قبل فى كتابك «المثقف والأمير» إلى شهداء وخبراء وعملاء، وأؤكد لك أنك لن تجد ـ أبداً ـ من هو فى مرونتى الفكرية والسياسية، إذ بإمكانك أن تعتبرنى من الخبراء الشهداء فى سبيل أن يكونوا عملاء!، كما أننى الوحيد ـ بشهادة بعض المنظمات الدولية مجهولة المنشأ وغير معروفة الاتجاه أيضاً ـ الذى يجمع بين كونه مع التاريخ وضد التاريخ فى آن واحد، إذ كنت أحب هذه المادة جداً فى المرحلة الثانوية ومع ذلك رسبت فيها بجدارة!، بصراحة يا دكتور سعد أنا أشعر أننى إبن ستين خلدون، ومن هنا جاءت مشاعرى الجياشة والفياضة تجاه مركزك».

ظل الحال على ما هو عليه.. طلبة يتدفق مشتعلاً ود. سعد الدين إبراهيم لا يبل ريقه بكلمة واحدة، وهنا قرر طلبة أن يلقى إليه بالكارت الأخير:

«أما عن مؤسسة دعم الديمقراطية فى واشنطن والتى تشترك مع مركز ابن خلدون فى بعض الأعمال، فأنا أعرف كل شىء عنها، فقد عُقدت بعض جلسات الاستماع فى الكونجرس فى أواخر عهد الرئيس ريجان لمناقشة دور وكالة المخابرات الأمريكية الذى مارسته فى أمريكا اللاتينية وضرورة السيطرة على دخول الوكالة فى مجال النشاطات المدنية، ومن ثم أنشئت هذه المؤسسة عام ١٩٨٥ كمؤسسة تابعة للكونجرس ضمن عملية لإعادة ترتيب المؤسسات التى تعمل فى إطار السياسة الخارجية، وبحيث ترتبط بالرغبة فى إبعاد السى. أى. إيه عن الأنشطة المدنية، وسوف أكون لك معيناً هائلاً فى هذا الإطار نظراً للعلاقة الوثيقة التى تربطنى ـ الآن ـ بالسفير الأمريكى والذى يرعى دورى السياسى الجديد ويشرف عليه، وأؤكد لك أن المؤسسة المذكورة لن تُفِلق منك كما فعلت مع الدكتور جهاد عودة فى مركز دراسات التنمية السياسية والدولية، والذى كان ينشر ترجمة لنشرتها تحت عنوان: الديمقراطية، لأننى ـ شخصياً ـ وبكل ما أملك من قوة سأكون معك، أساندك وأشد من أزرك تحت رعاية صديقى العزيز مستر إدوارد ووكر».

. . . .

أخيراً. . أخيراً. . أخيراً. . أخيراً.

إنفرجت أسارير الدكتور سعد الدين إبراهيم، وبدا وكأنه وجد ضالته المنشودة فى طلبة، ولم يكتف د. سعد بالابتسام، أو بالنظر إلى طلبة نظرة مترعة بالحنان والحب فقط، ولكنه أيضاً أخذ يقلب باهتمام فى الحبل والزلطة، ويسترجع كل حرف من كلمات طلبة عنهما، وهو يهز رأسه بتقدير وإعجاب، ثم أشار بيده إلى الشباب المتجمعين فى قاعة الاجتماعات ليدخلوا إلى القاعة، وقال لهم مشيراً إلى طلبة الذى أطرق برأسه خجلاً وخفراً وحياءً:

«لقد عثرنا على مفكر آخر مع التاريخ يا شباب. . وسنعقد اجتماعاً غداً لبحث ضمه إلى مجلس أمناء ابن خلدون».

حقوق الإنسان الدولية

الميه تروى العطشان

وتطفى نار الحران

ياجمالها والحوض مليان

وأنا عايم على وش الميه

الماااااايه . . ترلم

. . . .

كان طلبة يَجعُر من جواب جواب السيكا، وهو جالس فى البانيو، بينما فقاقيع الفوم تغطى جسمه بعباءة بيضاء أنيقة يعكس ضوء الحمام عليها ألوان الطيف السبعة.

ولم لا يسعد؟ ولم لا يغنى؟ ولم لا يَجعُر؟!

فالرجل وضع خطة لا تخر الماء، وتحرك بحنكة ودهاء، واعتمد أسلوباً علمياً فى جمع الأخبار وتدقيق المعلومات والأسماء، وبعد هذا كله بدأ يتلقى ردود فعل مشجعة تشى بآفاق هائلة لدوره السياسى الجديد المرتقب.

إلا أن طلبة رجل حقانى يحب الحق، ويحب ـ أيضاً ـ أن يرد الفضل لأصحابه، وهو لن ينسى ـ أبداً ـ فضل مستر إدوارد ووكر سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة، الذى كان اسمه بمثابة الكلمة السحرية التى تنفتح أمامها الأبواب المغلقة، وتنبسط فى مواجهتها أسارير كل عاقد للحاجبين، على الجبين اللجينى!

صوت طرقعة أصبع قدم طلبة الكبير الذى أطل من تحت الماء والفوم، أفاقه على الواجب الخطير الذى ينتظره اليوم، ليكمل به رتوش لوحة دوره السياسى الجديد.

حقوق الإنسان، كلمة السر الثالثة بعد الليبرالية، والمجتمع المدنى، والمؤهلة لأن تفتح أبواباً جديدة أمام طلبة ودوره، والمؤهلة ـ كذلك ـ لأن تخرجه من نفق أزمته المظلم الذى وجد نفسه قابعاً فيه بعد انهيار الشيوعية.

خرج طلبة من البانيو ليحيط جسده المبتل بباشكير مشجر ظريف، وينظر لصورة وجهه المنعكسة على سطح المرآة الكبيرة التى تعلو الحوض بإعجاب، ويهز رأسه هامساً:

«نعم.. حقوق الإنسان.. ولكنه موضوع ملىء بالتعقيدات التى تحتاج إلى دراسة شديدة الحساسية».

تلمس طلبة بقدمه مكان الشبشب على أرضية الحمام السيراميك، وهو غارق فى تأمل صورة وجهه فى المرآة، ثم ارتدى الفردة الأخرى، وخرج إلى غرفة النوم ليرتدى ملابس سبور مناسبة لرسم التحركات، وحبك الخطط. (لا يعرف أحد ـ على وجه الدقة ـ ما هى العلاقة بين الملابس الإسبور وحبك الخطط، إلا أنها ـ أى الملابس الإسبور ـ يمكن أن تكون أكثر ملاءمة لمثل هذا العمل، كونها تجعل المرء يتآمر على راحته).

....

جلس طلبة على كرسى مكتبه، ونادى على ماهر عبد الهادى الذى كان غارقاً فى الأوراق على منضدة السفرة!

«ماااااااهر.. ماااااهووره.. مهاهيروو.. هات الورق وتعال يا جميل لدينا عمل كثير هذا الصباح».

جاء ماهر يحمل أوراقه، ووضعها على المكتب، ثم جلس قبالة طلبة ينظر إليه بتقديس حقيقى، فالأستاذ وحده ـ من وجهة نظر ماهر ـ هو الذى

يستطيع تحويل هذه المعلومات التى جمعها إلى كائنات تنبض بالحياة على أرض الواقع ويخلق بينها علاقات ارتباط، ويوظفها ـ جميعاً ـ فى خدمة هدفه الذى حدده مسبقاً، وجر تلامذته ـ كلهم ـ فى الطريق المؤدى إليه.

قلّب طلبة فى الأوراق باهتمام نهم، بينما كان يرسم بالقلم الرصاص على صفحة بيضاء، خطوطاً وأسهماً، ودوائر، وعلامات تعجب واستفهام، وبضعة حروف لاتينية وهيروغليفية قديمة، ثم نظر إلى ماهر ملياً، وأطال النظر، وزفر زفرة ارتياح عميق وبدأ حديثه:

«نحن أمام معلومات تقول بأن هناك أربعة كيانات محلية وإقليمية لحقوق الإنسان فى مصر، أولها المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وقد تأسست فى ديسمبر ١٩٨٣ كمنظمة غير حكومية للدفاع عن حقوق الإنسان، وكان أول رئيس لها فتحى رضوان، ورئيسها الحالى أديب الجادر (عراقى معارض)، وكان أول أمين عام لها د. سعد الدين إبراهيم، وأمينها الحالى محمد فائق، ومقرها الرئيسى ١٧ ميدان أسوان بالمهندسين، وحساباتها البنكية فى البنك العربى المحدود جنيف ، والبنك الوطنى المصرى فرع ثروت، حساب جارى رقم ٥٨١٨٣٥.

وأمامنا ـ أيضاً ـ المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وهى منظمة غير حكومية للدفاع عن حقوق الإنسان، وأول رئيس لها محمد إبراهيم كامل، ورئيسها الحالى نجيب فخرى، وأول أمين عام لها بهى الدين حسن، وأمينها الحالى نجاد البرعى، ومقرها ٨ شارع متحف المنيل ـ منيل الروضة، وحساباتها فى المصرف العربى الدولى وبنك مصر، والبنك التجارى الدولى، والحسابات مسجلة باسم الأمين العام، وأمين الصندوق د. محمد مندور، أما أهم الممولين المعلنين فهم: لجنة المحامين لحقوق الإنسان (أمريكا)، منظمة نوفيب الهولندية، الصندوق السويسرى للمنظمات غير الحكومية، والبرنامج الدولى لمنح حقوق الإنسان، واتحاد المحامين العرب، ونقابة

المهندسين، والحزب الناصرى، وحزب التجمع، ودار صوت العرب للثقافة والإعلام (عبد العظيم مناف)» .

ثم تغيرت نبرة صوت طلبة، وأخذ يضغط على مخارج الألفاظ كمن وجد ضالته المنشودة، بعد طول بحث، وتمتم على مهل، وكأنما يتذوق ويستطعم حروف الكلم :

«وكان الصراع على التمويل أحد أهم عوامل الانقسام داخل هذه المنظمة، والذى اتخذ شكل صراع ناصرى / ماركسى، رغم أنه فى أساسه ـ وفى نظر عدد لا بأس به من المراقبين ـ كان صراعاً على الفلوس، واتضح ذلك ـ فى نظر ذات المجموعة من المراقبين ـ من المعركة التى دارت خلال الجمعية العمومية للمنظمة التى انعقدت أوائل ١٩٩٤ فى نقابة الصحفيين» .

نظر طلبة إلى عينى مساعده فقد كان لا يعول كثيراً على دقة أو أهمية مثل هذه المعلومات، ولكن أما وقد وردت فى تقرير ماهر فلا بأس من استخدامها استخداماً تكتيكياً مع توخى أكبر درجات الحذر التكتيكى أيضاً!

ثم تابع طلبة استعراضه للمعلومات التى تضمنها تقرير ماهر فقال بصوت خافت فيه بحة خفيفة يصلح أن يكون صوتاً لأفعى محلية جربانة ومتوسطة الخطورة :

«أما الكيان الثالث فهو مركز الدراسات والمعلومات لحقوق الإنسان وقد تأسس عام ١٩٩١ فى صورة شركة مدنية لا تهدف للربح، وتعمل على احترام سيادة القانون والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، ومؤسسه هو أمير سالم (محامى ماركسى كان أحد قادة الحركة الطلابية فى جامعة عين شمس ٧٢ ـ ١٩٧٣) ومقره ٧ ش الحجاز ـ روكسى، ومصادر تمويله غير معروفة،

ولكن نفس المجموعة ـ إياها ـ من المراقبين ترجح أنها نفس مصادر تمويل المنظمة المصرية ومركز القاهرة، حيث كان أمير سالم أحد قادة المنظمة المصرية قبل أن يؤسس هذا المركز، ويعتقد أنه أسسه بجزء من أموال المنظمة حصل عليه فى إطار الصراع على التمويل».

أمعن طلبة النظر فى عينى ماهر، فقد بدأ يضيق ذرعاً بمثل هذا النوع من المعلومات غير المؤكدة وغير الموثقة توثيقاً كاملاً، لكنه مع ذلك لم يغض الطرف عنها بشكل كامل، إذ تتجلى فيها ـ باستمرار ـ إمكانيات استخدام هائلة، يمكن بها ابتزاز كل الأطراف المعنية، وصولاً إلى إخضاعها وتوظيفها فى خدمة أهدافه.

وواصل طلبة قراء الأوراق:

«أما الكيان الرابع، فهو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، وقد تأسس عام ١٩٩٣ كهيئة علمية بحثية وفكرية غير حكومية، تستهدف تعزيز حقوق الإنسان، ومديره هو: بهى الدين حسن (أول أمين عام للمنظمة المصرية) ومستشار الأبحاث هو: د. محمد السيد سعيد، والجهات الممولة للمركز هى: مؤسسة فريدريش إيبرت (ألمانيا)، ومؤسسة ميدإيست (أمريكا)، ومؤسسة معاً من أجل حقوق الإنسان (فرنسا)، وهيئة المعونة الدنماركية (الدانمارك)».

. . . .

حين فرغ طلبة من قراءة الأوراق أطرق برأسه قليلاً وبدا وكأنه أنخرط فى حالة شبه فلسفية، بينما حبس ماهر أنفاسه منتظراً تقييم الأستاذ لمجهوده الكبير الذى اقتضى منه الدخول فى عضوية المنظمات الأربع، وشراء نظارة سوداء بيرسول لزوم التنكر والمراقبة، ثم التغلب على مشاعره الجياشة ضد حقوق الإنسان طبقاً لعناصر ثقافته السياسية الأولى، والإنسلاخ بعد ذلك

من حدود هذه الثقافة، والتحول إلى كائن ظريف يحب حقوق الإنسان ويبذل فى سبيلها الدم والعرق والدموع.

«مش بطال يا ولد يا ماهوره».

جاءت عبارة طلبة ـ هذه ـ بمثابة بضعة مكعبات ثلج ألقيت فى عب ماهر، فأثلجت صدره!

ثم واصل طلبة:

«ولكن ما يجب علينا الآن هو أن نعرف كيف نستخدم هذه المعلومات، فلدينا أولاً مجهود إعلامى، ثم لدينا ثانياً مجهود تطبيقى يتعلق باستخدامها.

فأما عن المجهود الإعلامى فهو يعنى تدريب أنفسنا على الظهور التليفزيونى والإذاعى والصحفى فى أثناء اكتمال ملامح دورنا السياسى الجديد، والذى ستكون ساحة حقوق الإنسان من ساحاته المفضلة، وأما المجهود التطبيقى فيعنى استخدامنا للمعلومات فى النفاذ إلى منظمات حقوق الإنسان والحصول على دعمها وتأييدها لدورنا السياسى الجديد».

بربش ماهر بعينه فى انبهار صادق بقدرات الأستاذ الخلاقة والخارقة معاً، ثم واصل استماعه إليه فى اندماج يصل إلى حد الدروشة المتكاملة الأركان.

«سنبدأ بتدريب أنفسنا على الظهور فى التليفزيون، وليكن ذلك من خلال برنامج صباح الخير يا مصر، حيث أرى أن الشعب المصرى الصديق ينبغى أن يستقبل ظهورنا فى بداية النهار، وقبل أن تضغط أعباء الحياة عليه بشكل يمنعه من استيعاب رسالتنا، بعبارة أخرى، سنكون (إصطباحة) هذا الشعب السياسية والإعلامية».

قام طلبة بنشاط من على المكتب وجلس على كرسى فى مواجهة ماهر، ثم أضاء أباجورة المكتب ليضفى جواً أشبه بجو الاستوديو، وتناول قدحاً من الكابوتشينو وأمسكه فى يده ليمارس شكلاً من الطبيعية والتلقائية التى يحرص

عليها مقدمو وضيوف البرنامج، وقال لماهر فى استعجال:

«ستمثل أنت دورى محمود سلطان وفريدة الزمر، وتستضيفنى فى البرنامج موجهاً إلىّ مجموعة من الأسئلة المتفق عليها، وأجيبك - أنا - بدهشة تفيد أننى بوغت بهذه الأسئلة الجريئة.. اتفقنا يا ماهوره؟!.. ابدأ..».

ارتبك ماهر قليلاً، ثم بدأ يستحضر فى نفسه صفات محمود سلطان وفريدة الزمر، فتسلح بقدر لا بأس به من الحواطة والتزام فكرة الأسئلة المفتوحة ليبدو مثل محمود، كما التزم - من جانب آخر - براءة وهليهلية فريدة، ومد يده إلى مشبك ورق كبير من على مكتب طلبة ليثبته فى ياقة سترته كالميكروفون، وفتح جهاز التسجيل على المكتب، حرصاً على توثيق هذه التجربة الإعلامية المهمة، وبدأ ماهر محاولته مواجهاً الأباجوره حيث ينبغى أن تركز اللقطة الأولى على المذيعين:

«سيداتى آنساتى سادتى.. ضيفنا فى هذه الفقرة رمز سياسى مهم ملأ الدنيا وشغل الناس لسنوات طويلة، وهو الشاعر الكبير طلبة عبد الرحمن يوسف هريدى، الذى بدأ يضطلع بدور سياسى جديد تبرز خطورته يوماً وراء يوم، وأبرز ساحات هذا الدور هى - بلا شك - ساحة حقوق الإنسان، وهو موضوع يهم الداخل كما يهم الخارج».

(كان هذا - بالطبع - هو محمود سلطان).

«أه والنبى يا أستاذ تولبة يهم الداخل كما يهم الخارج».

(وكانت هذه - بالطبع - هى فريدة الزمر).

«ونود - فى البداية - أن نستوضح من سيادتك معنى حقوق الإنسان وملاحظاتك على أسلوب عمل المنظمات المرتبطة بهذه الحقوق فى مصر».

(كان هذا - بالطبع أيضاً - هو محمود سلطان).

«آه وحياة النبى يا أستاذ تولبة. . إيه هية ملاحظاتك على الأسلوب. . لأننا مش فاهمين حاجة. . والناس مش فاهمه حاجة. . وعاوزين نفهم أى حاجة».

(وكانت هذه بالطبع أيضاً ـ هى فريدة الزمر).

اعتدل طلبة على كرسيه ووضع ساقاً على ساق، قبل أن يتنحنح ويبدأ حديثه:

«فى الواقع. . أول ما لفت نظرى فى منظمات حقوق الإنسان، هو هذه البعثرة الكبرى للجمعيات والمراكز والتى يقع بعضها فى المهندسين، والبعض الآخر فى روكسى، والبعض الثالث فى المنيل، بما يجعل أى إنسان حريص على الالتصاق بقضية حقوقه يمضى معظم نهاره فى اللهاث وراء الحافلات العامة، متنقلاً من أقصى القاهرة إلى أقصاها، وهذا أمر يصيب أى إنسان يبحث عن حقوقه بالقنوط والقرف واليأس والحيرة، تلك الحيرة التى هى أشبه ما تكون بحيرة الأستاذ محمد عبد المطلب حين كان يمضى أناء الليل وأطراف النهار، فى التنقل بين حى السيدة وحى الحسين، ذهاباً إلى حبيبته وإياباً إلى بيته، ويمكن لأى مراقب نصف منصف أن يتخيل حجم المشقة التى كان يتجشمها الأستاذ عبد المطلب، حين يتأمل ذلك المقطع من أغنيته الشهيرة، الذى كان يقول: (وعشان أنول منه الرضا. . يوماتى أروح له مرتين)».

وواصل طلبة بعد أن تنحنح كمان نحنوحة:

«وهذا الوضع لا يستقيم ابتداء مع قضية حقوق الإنسان، وإذا أصرت منظمات حقوق الإنسان على هذه البعثرة فلابد أن تلتزم ـ وليكن ذلك بضغط شعبى أو حتى دولى ـ بتخصيص بضعة ميكروباصات، مجهزة تجهيزاً كاملاً لنقل المواطنين الذين نقحت عليهم حقوقهم، من أماكن التجمعات

السكنية الكثيفة فى القاهرة الكبرى إلى مقار هذه المنظمات، وليكن ذلك - أيضاً - من خلال مواقف معروفة فى التحرير والعتبة والمطرية وبولاق الدكرور، كما أنصح بتوفير خدمة خاصة للنقل بالنفر - من خلال موقف أحمد حلمى - لمواطنى الأقاليم».

(وما هى ملاحظتك الأخرى يا أستا. . . . . .). .

وقبل أن يضيف محمود سلطان كلمة أخرى على السؤال كانت فريدة الزمر قد مارست هوايتها المفضلة فى النط على كلامه مقاطعة فى نشوة وانفعال:

«آه وحياة النبى يا أستاذ تولبة. . ما هى ملاحظتك الأخرى. . لأننا مش فاهمين حاجة. . والناس مش فاهمة حاجة. . وعاوزين نفهم أى حاجة».

أنزل طلبة ساقه وأشعل سيجارة، قبل أن يتنحنح نحنوحة إلا قليلا ويواصل حديثه:

«فى الواقع أن ثانى الأشياء التى لفتت نظرى، هو هذه الكمية الهائلة من أرقام الحسابات، وعناوين المصارف والبنوك، وأسماء الجهات الممولة، بما يوحى أن حقوق الإنسان - بالدرجة الأولى - هى حقوق مادية تتعلق بالفلو (الفلو هو الاسم المختصر للفلوس عند طلبة وهو يفضل استعماله على سبيل التدليل وتعبيراً عن المحبة الخالصة)، ومما يؤكد هذه الحقيقة بسطوع جلى، شيوع استخدام تعبير (آليات الدفع لحقوق الإنسان) عند معظم العاملين فى حقل هذه الحقوق، ثم هناك - أخيراً - هذه الإشارات الجميلة الموحية والموجودة فى تراث المنظمة المصرية عن الصراع على التمويل، بما يشى بأن التمويل كبير وملظلظ بما يدفع للصراع عليه، والخناق من أجل اقتسامه».

داخل ماهر بسؤال مباغت - مفتوح أيضاً - على طريقة محمود سلطان:

«وهل لدى سيادتك يا أستاذ طلبة ما يثبت هذا الانطباع؟» .

ثم أضاف ماهر على طريقة فريدة :

«أه وحياة النبى يا أستاذ تولبة هل لدى سيادتك ما يثبت هذا الانطباع . . لأننا مش فاهمين حاجة . . والناس مش فاهمة حاجة . وعاوزين نفهم أى حاجة» .

تنحنح طلبة نحنوحة ونصف قبل أن يسحب نفساً عميقاً من سيجارته ويجيب :

«فى الواقع . . ما يثبت هذا الانطباع هو إصرار كل المنظمات والمراكز على تقرير أنها منظمات غير حكومية ، وهو ما يرمز له بالحروف : إن . جى . أو، التى أعتقد أنها اختصار لكلمات (نشفط جامد أوى)، وفعل الشفط ـ كما تعلمون ـ ليس له وجود فى القواميس والمعاجم اللغوية ، إلا أننى وجدت فى (المنجد فى اللغة والأعلام) مادة تتعلق بكلمة شفتر، التى تعنى أن يغلظ المرء شفتيه ويبرزهما إلى الخارج ، ومن وجهة نظرى فإن ذلك يكون غضباً أو استياء ، أو خلقة ، أو استعدادا فطرياً أو مقصوداً لممارسة فعل الشفط .

وأود ـ هنا ـ أن ألمح إلى أن الشفترة لن تسىء إلى شكل من يمارس الشفط على الإطلاق ، فقد قال أبو الطيب المتبنى فى وصف كافور:

وأسود مشفره نصفه

يقال له أنت بدر الدجى» .

لم يتمالك ماهر نفسه فصاح فى حماس فوار، ولكن بطريقة محمود :

«الله . . الله يا أستاذ طلبة» .

ثم أردف على طريقة فريدة :

«أه وحياة النبى . . الله . . الله يا أستاذ تولبة» . .

انشكع طلبة من نفسه فتجلى مواصلاً من دون أية نحنحة :

«وأنصح ـ فى هذا السياق ـ أن يتحلى العاملون فى المجال، الذى نحن بصدد التعرض له، بخاصية الصبر والدأب على تدريب أدواتهم وصقلها، بما يمكنهم من أداء دورهم المفترض، ولا يكون ذلك إلا بأداء تمرينات يومية قاسية للشفاة تدريباً على الشفترة، وللرئتين تدريباً على سحب أكبر كمية من الهواء فيما يعرف بالشفط».

وتساءل ماهر بأسلوب محمود :

«ولكن ما دور شاعر كبير مثلك فى هذا المجال يا أستاذ طلبة؟».

وأضاف ماهر بأسلوب فريدة :

«آه وحياة النبى يا أستاذ تولبة ما دور شاعر كبير مثلك فى هذا المجال . . لأننا مش فاهمين حاجة . . والناس مش فاهمة حاجة . . وعاوزين نفهم أى حاجة».

ثم أردف ماهر بأسلوب فريدة ـ أيضاً ـ والتى رأت أن تضيف شيئاً لم يقله محمود :

«ونحب نوجه عناية السادة المشاهدين إلى أننا يسعدنا أن نتلقى أى ملاحظات أو أسئلة منهم للأستاذ تولبة على فاكس البرنامج ٧٦٠٠٢٥ ـ ٧٧٠٠٦٠».

منح تنبيه فريدة هذا طلبة فسحة مناسبة من الوقت ليفكر فى إجابة السؤال، وما أن انتهت فريدة من التنويه حتى طفق طلبة يجيب فى طلاقة تفكير وطلاوة لسان نادرتين :

«فى الواقع إنه لما كان القوام الأساسى للمنظمات والمراكز العاملة فى حقل حقوق الإنسان يتشكل من عناصر تنتمى إلى أصول فكرية تقع فى منطقة ما بين الشمولية والفاشية، فى أحسن الأحوال، فإن ذلك يثير فى النفس إعجاباً

فائقاً بتلك المرونة النفسية والسياسية لهذه العناصر التى مكنتها من الانتقال إلى مواقع فكرية تقع على الطرف النقيض الآخر، بسلاسة وانسيابية وفى صمت بليغ، بحيث أصبحت أصوات هذه العناصر هى الأعلى فى مربع الديموقراطية وحقوق الإنسان، وهذا يطرح ـ من جديد ـ قضية المثقف اللولبى، القادر ـ مثل الأستك ـ على تبديل مواقعه وفقاً لصيغ مطاطة عبقرية.

والغريب ـ فى هذا الإطار ـ أنه رغم معلومية الجميع بقدراتى اللولبية غير المسبوقة، ورغم معلومية الجميع بحدود دورى السياسى الجديد الذى يتبنى مفاهيم الليبرالية، والمجتمع المدنى، وحقوق الإنسان، ورغم معلومية الجميع بأن هذا الدور يتمتع برعاية القوة العظمى الوحيدة فى عالمنا، وكل القوى الأخرى المانحة لمنظمات حقوق الإنسان، فإن أحداً من القائمين على أمر هذه المنظمات لم يحاول الاتصال بى، أو ترتيب وضع معين، يتيح لهذه المنظمات الاستفادة من دورى السياسى الجديد، الذى يُعلى قيمة اللولبية كما لم يعليها أى دور سياسى آخر على مدى تاريخ الدولة الحديثة فى مصر.

وأنوه ـ هنا ـ بأن (لولبية) المثقف لا علاقة لها ـ البتة ـ بأية وسيلة من وسائل تنظيم الأسرة، وإلا أصبح الدكتور ماهر مهران مسئولاً مسئولية مباشرة عن التحولات الفكرية التى تعترى البدن الثقافى فى مصر، وإنما اللولبية تظل تعبيراً عن حالة سياسية ـ عضوية ـ أخلاقية، تبرز ملامحها لدى المثقف الساعى إلى أن يمد تأثير دوره السياسى إلى المستقبل، وفى ظل كل الظروف».

أطلق ماهر قبلة فى الهواء فى اتجاه طلبة ثم قال على طريقة محمود:

«فى نهاية هذا اللقاء الثرى نتوجه بالشكر إلى الشاعر الكبير طلبة عبد الرحمن يوسف هريدى».

ثم أتبع ماهر بإطلاق قبلة أخرى فى الهواء فى اتجاه طلبة وقال على طريقة فريدة :

«آه وحياة النبى فى نهاية هذا اللقاء الثرى نتوجه بالشكر إلى الشاعر الكبير تولبة عبد الرحمن يوسف هريدى» .

. . . .

أطفأ ماهر الأباجورة والكاسيت، فيما كان جرس الباب يرن رنيناً متواصلاً، فجرى إليه فى عجالة ، ولما فتح وجد البواب الذى سلمه ورقة قائلاً :

«ده فاكس جه للأستاذ بعد البرنامج» .

ورغم أن ماهر يعلم أن البرنامج كان مجرد تمثيلية وتجربة ، ورغم أن ماهر يعلم أن البواب ليس لديه فاكس، إلا أنه تسلم الورقة وطار بها على طلبة ، الذى طالع سطورها مبتسماً فى انتصار:

«الشاعر الكبير طلبة عبد الرحمن يوسف هريدى :

تابعنا ـ باهتمام ـ لقاءك المثير فى برنامج صباح الخير يا مصر، وفهمنا إشارتك القوية عن دعم القوة العظمى الوحيدة لدورك السياسى الجديد .

قبلناك عضواً . . ومُنظراً . . ورمزاً . .

وفى عرض دين النبى لا تواصل إذاعة أو نشر آرائك وتفسيراتك عن حقوق الإنسان .

توقيعات :

محمد فائق .

أديب الجادر.

نجاد البرعى

أمير سالم .

بهى الدين حسن .

سَعيُكم مَشكور

تُعد دار المناسبات فى جامع عمر مكرم الواقع فى وسط المدينة، بمثابة ساحة تعميد للوضع الاجتماعى لأى مواطن، وبخاصة إذا ما بذل هذا المواطن مجهوداً بسيطاً يبرر ظهوره فى هذه الساحة، ويضعه فى المكان الذى يتصوره تحت الأضواء، ـ بعبارة أخرى ـ يتوفى إلى رحمة الله.

وبمقدار اهتمام البلدية برش الشارع والميدان أمام دار المناسبات، بمقدار ما تتحدد أهمية الشخص (المتوفى)، وأهمية المناسبة (الوفاة).

ثم أن جهد رجال المرور حول مسرح الحدث يظل مرهوناً ـ من حيث حجمه وديناميكيته ـ بأهمية الميت صاحب الحفل، ومكانة المدعوين إلى ذات الحفل.

غير أن مناسبة الوفاة فيها سبع فوائد أخرى، يمكن تحديدها على النحو التالى:

١ـ وسيلة ملائمة لظهور المسؤولين السابقين فى ساحة عامة تجمعهم والمسؤولين الحاليين، بما يثبت ـ أولاً ـ أنهم لم يتوفوا بعد، وبما يؤكد ـ ثانياً ـ امكاناتهم للمناوشة على منصب مقبل لدى أول تغيير أو تعديل وزارى مهما طال الزمن، أو بدا هذا التغيير أو التعديل أمراً مستحيلاً ـ نادراً كبيضة الديك، وبما يطرح ـ ثالثاً ـ سيلاً من المقارنات بين عدد الذين خفوا للسلام على المسؤولين السابقين، وهؤلاء الذين أسرعوا لتحية المسؤولين الحاليين، وليست المقارنة فى العدد فقط، ولكن ـ أيضاً ـ فى

درجة الحرارة التى أبداها كل فريق فى هرولته تجاه من هرول إليه، أو الدلالة السياسية لنوعية المهرولين، حكوميين - كانوا - أو معارضين، مثقفين - كانوا - أو رجال أعمال.

فى وصف أخر فإن دار المناسبات تستحيل ساحة من ساحات الإغاظة والإفحام، والكيد، وترقيص الحواجب، والتنابذ بالمؤيدين، بين رجال البلاط السابقين والحاليين.

٢- وسيلة مناسبة لإظهار الفجيعة والالتياع، على رحيل الفقيد (وبخاصة إذا كان يشغل حتى سعت الوفاة منصباً عاماً) بحيث يكون حجم الفجيعة والالتياع التى أبداها المعزى، فى قمة أولويات مسوغات تعيينه فى المنصب بدلاً من الميت، باعتباره رجلاً متفان فى إخلاصه ومحبته، وخصوصاً إذا نجح الملتاع فى إيهام الحضور بأن فجيعته لها طبيعة عامة ترتبط بحرصه على استقرار النظام، واستمرار المسيرة، أكثر منها مرتبطة بتقديره لخصال الفقيد وسجاياه.

وعادة ما يكون التنافس على ذرف الدموع الساخنة، أو النهنهة ذات الصوت، مع هز الأكتاف بالطبع، بالإضافة إلى رسم تعبير على الوجه هو مزيج من الحزن الدفين والإشمئناط، وهو ذات التعبير الذى يعلو وجه من يعانى الإمساك، وسائل ناجعة فى توثيق طلب المعزى فى وراثة وظيفة الميت.

٣- وسيلة مناسبة لأجهزة الأمن المختلفة، للتعرف على الشلة أو الزمرة التى يرتبط بها شخص ما، وهو أمر - كما يعلم الجميع - شديد الأهمية، فى جمع التحريات، وهو شديد الأهمية حتى إذا توفى الإنسان، حيث - من المعتاد - أن يرث الأبناء والأقرباء منظومة علاقاته العملية أو الإنسانية، ثم - من جهة أخرى - فإن وفاة المتوفى لا تحول - إطلاقاً - دون متابعته

والتقصى عنه، إذ يظل المتوفى محل تحريات سياسية على الرغم من استحالته رماداً منثوراً، بحكم استمرار تأثير أفكاره بعد الوفاة من جهة، أو بحكم قابلية اسمه للاستخدام - كما تدعى بعض فصائل المعارضة - فى الجداول الانتخابية.

٤- تجمع مثالى لعقد الصفقات، إذ يندر - وسط مشاغل الحياة وزحمة الارتباطات - أن يجتمع أصحاب المصالح - كلهم - معاً فى وعاء واحد، إلا فى المآتم وسرادقات العزاء، وبالتالى فإن مناقشة أمر «لوط» ملابس مستعملة، أو ثلاثة إلى أربعة أطنان من حديد التسليح، أو بضعة آلاف من الفراخ الفاسدة، أو فتح خمس أو ست ثغرات فى قانون على وشك الاصدار من أجل تسليك المسائل، أو غلق هذه الثغرات بعد إنجاز المطلوب، مناقشة كل هذا تجد ساحتها المثالية فى مثل هذه المناسبات.

ثم إن وجود الفرقاء والأضداد معاً فى مكان واحد، لا يقتضى اتصالات لتحديد موعد، أو مواصلات لبلوغ مكان الموعد المضروب، يفتح الباب - على مصراعيه - أمام المساومات، وترسية الصفقة على فلان الفلانى أو علان العلانى، ما إذا أبدى ترتان الترانى «عصلجة» أو «تربسة» أو مقاومة من أى نوع، إذ لا يحتاج الأمر - عند بلوغ الخلاف مبلغاً شديداً - إلا أن ينتقل فلان من جانب ترتان، ويأخذ مجلسه إلى جوار علان لتبدأ - من جديد - سلسلة من المفاوضات والوشوشات والتسار إلى أن ينتهى الأمر بالتصافح (علامة الوفاق) أو بتقبيل الوجنات (علامة الاتفاق)، وهذه كلها من سمات سيادة آليات السوق عبر هذه المناسبات الاجتماعية، حتى أن بعض المراقبين أسموها - فى لغة خطابهم الاقتصادى - بآليات الجنازة!

٥- وسيلة مناسبة لعلاج آلام الرقبة، إذ أن من السلوكات المرعية فى مثل هذه

المناسبات، أن يلوى المرء عنقه فى اتجاه فتحة السرادق أو باب دار المناسبات لمراقبة من الذى دخل، ومن الذى خرج، وكيف كان الداخل يبدو، وعلى أى نحو كان الخارج يظهر، فإذا كان عنق الإنسان ملووحاً تجاه اليسار، عليه بالجلوس فى صف الكراسى الأيسر، حتى يلوح عنقه فى الجهة المعاكسة (يميناً) باتجاه الباب، وبالتالى تعتدل فقرات الرقبة، وإذا كانت رقبة الإنسان ملوية تجاه اليمين، عليه بالجلوس فى صف الكراسى الأيمن، حتى يلويها فى الجهة المعاكسة (يساراً) باتجاه الباب، وبالتالى يستقيم وضع الفقرات المذكورة (ملحوظة هذه الطريقة مسجلة فى الكتب الأكاديمية الطبية باسم الدكتور عمرو عبد السميع، وهو ـ بالمناسبة ـ ليس طبيباً).

٦ـ ساحة ملائمة للإبداع الاجتماعى، إذ يخترع كل شخص نسقاً من التصرفات والسلوكيات التى يلتزمها فى جميع مراحل العزاء، وتصبح بعد ذلك مصكوكة بعلامته التجارية، بحيث لا يستطيع أى شخص آخر استخدامها من دون استئذان صاحبها، وإلا عد ذلك اختراقاً لحقوق النشر، وتكريساً لحالة من حالات القرصنة الاجتماعية المقيتة.

وضمن العناصر التى تتشكل منها هذه الأنساق تظهر أنماط السلوك التالية:

فقبل باب السرادق بخطوات يعمد البعض إلى إغلاق أزرار السترة، ثم الإسراع فى خطوات قصيرة متتابعة تفيد معنى التلبية من شخص وقع عليه خبر الوفاة وقوع الصاعقة (لا بأس ـ هنا ـ من استعمال دبوس ذهبى لرابطة العنق على شكل صاعقة لتأكيد المعنى المطلوب)، ثم يُسلم على طابور أهل الميت المصطف على باب دار المناسبات، مع الغمغمة المناسبة بصوت مبحوح متحشرج، وبعد ذلك تقبيل شخص من أهل المتوفى تربطه به

علاقة، وذلك من أجل تعلية كعبه على بقية الأقارب، إذ تدور منافسة أخرى جانبية بين أهل الفقيد على عدد الذين جاءوا لتعزية كل واحد منهم، وبعد أن يستقر المعزى على كرسيه يبدأ فى تحية من يعرفهم داخل السرادق، وقد يكون ذلك بخبط اليد (مفتوحة) على الصدر عدة مرات، أو برفعها إلى الرأس تحية وسلاماً، وقد يزيد البعض بسؤال أول شخص يتصادف جلوسه إلى جوارهم عن كيفية حدوث الوفاة، فيرد هذا الشخص - عادة - بأن المتوفى كان «زى الفل»، وطلب من ابنته كوباً من الماء، فلما ذهبت إلى المطبخ وعادت بالماء، وجدته قد ركن رأسه على ظهر الكرسى، وشعلق عينيه فى السقف، فعرفت أن سهم القدر قد نفذ وصعد السر الإلهى، فسقط من يدها كوب الماء، بينما كان الآذان يؤذن، ثم يضيف: الله يرحمه كان رجلاً طاهراً، ولا بأس - حينئذ - أن يهز السائل رأسه أسفاً، بينما يمصمص شفتيه حسرة (ملحوظة أخرى: المصمصة - هنا - اختيارية، قد يؤديها الإنسان أو لا يؤدها حسب رغبته، أو وضعه الاجتماعى، أو قدرة الراوى على حبك حكاية مؤثرة».

٧- وهذا هو بيت القصيد، فإن المأتم وسرادقات العزاء، قد تكون ساحات شديدة الملاءمة للترويج لدور سياسى جديد، سواء كان دوراً لشخص أو لجماعة، وهى - بالطبع - ساحة لم تفت النجم الساطع طلبة هريدى، وهو يهندس ملامح دوره السياسى الجديد.

. . . .

كان طلبة قد كلف كل من ماهر عبد الهادى، ونور أحمد السعيد، وسيف صلاح الدين، بالقراءة المتأنية اليومية الدقيقة لصفحات الوفيات بالجرائد اليومية، مع رسم خرائط اجتماعية تفصيلية، لشبكة علاقات القربى والمصاهرة لكبار المسؤولين فى الحكومة والأحزاب، بحيث لا يمضى

حادث وفاة واحد من دون اقتناصه وتوظيفه لخدمة دوره السياسى الجديد.

وبين كل الملابس المرصوصة فى خزانة ملابس طلبة، كان هناك زى لكل مناسبة، البلوفر المقطوع والكوفية الفلسطينية والحذاء الكاوتشوك، كانوا العمود الفقرى لملابس النضال التى اعتاد طلبة أن يظهر بها فى محتفلات حزب الترقى أيام الكفاح المستعر، أما الحلة «السفارى» القريبة الشبه من الملابس العسكرية، فكانت للزيارات التى يقوم بها لمقار الأحزاب أو للسفريات التى كان يمثل فيها حزبه فى الخارج، وهى الملابس التى توحى - لا يعرف أحد لماذا - بالعمل السياسى، ربما لقربها من شكل الزى الموحد الذى كان يصرفه الحزب الشيوعى الصينى لأعضائه.

ثم بعد هذا حلة التعازى التى فصلها - خصيصاً - من أجل دوره السياسى الجديد، والمصنوعة من قماش كحلى غامق وفاخر، وتحتها قميص سماوى غامق، ورابطة عنق وقورة تمتزج فيها الألوان: الرمادى والبنفسجى والأزرق، ثم منديل أبيض محايد لجيب السترة، مع تثبيت إنسيال ذهبى صغير على ياقة الجاكيت عليه الحروف: U.S.A، حتى يعلم من شاء أن يعلم، ويفهم من شاء أن يفهم، أن طلبة مؤيد من القوة العظمى الوحيدة فى عالمنا، وإن كان طلبة يدرك - جيداً - بناء على الشواهد وردود الأفعال التى راقبها - حتى الآن - أن حكاية تأييد الولايات المتحدة، وموقف السفير الأمريكى مستر إدوارد ووكر المشرف من دوره السياسى الجديد، قد أصبحا على كل لسان فى قاهرة المعز، إلا أنه تعود ألا يترك شيئاً للاحتمالات، إذ ربما يكون هناك بعض المتبلدين الذين لا يصيخون السمع، فى أروقة الحكم، أو مقاهى المثقفين، لم تبلغهم بعد مسألة دوره السياسى الجديد.

وبعد أن أخرج طلبة هذه الحلة من خزانة ملابسه، أمسك بقصاصة ورقية صغيرة كتبها له سيف صلاح الدين، وتحتوى قائمة بالمعازى التى

يرشحها لطلبة تلك الليلة، ومع كل اسم لمتوفى من نجوم هذه المآتم، أرفق سيف بضعة سطور توضح نسبة الميت إلى مسؤولى الدولة وكبرائها.

وكالعادة كان طلبة يختار المآتم الأكثر ثقلاً ولمعاناً، أو يقرر حضورها جميعاً، إذا لم يك مشغولاً.

بدأ طلبة فى قراءة الاسماء التى احتوتها قائمة الليلة، باهتمام متوسط، ثم فجأة، جمد مأخوذاً، وأعاد قراءة السطر الأخير: «والمرحومة قريبة ونسيبة عائلات الشاذلى بالمنوفية. . .»، ثم طالع مذكرة سيف الإيضاحية التى أكدت هواجسه وظنونه، فالمتوفاة قريبة من بعيد جداً لكمال الشاذلى وزير الدولة لمجلسى الشعب والشورى وأمين التنظيم بالحزب الوطنى الديموقراطى.

«إذن سوف تكون الليلة آخر جنجلة».

قالها طلبة متمتماً لنفسه، ثم أردف:

«لابد من الإسراع حتى لا تفوتنى فائتة».

. . . .

دار المناسبات فى مسجد عمر مكرم، تسبح فى الضوء، بينما وضعت لافتة على جانب الباب مكتوب عليها اسم الفقيدة بالبنط الرفيع، وتحتها بالبنط العريض سُطرت عبارة: «قريبة الوزير كمال الشاذلى من بعيد جداً».

أقارب المتوفاة اصطفوا على باب الدار فى خشوع، وأولهم سيادة الوزير، بينما العربات السوداء لكبار المسؤولين تفد متتابعة فى سرعة لتقف أمام مداخل السرادق، حيث ينزل منها المسؤولون، ثم تمضى ـ ومعها عربات الحراسة ـ إلى ساحة انتظار السيارات.

رجال المرور يتنادون فى صخب، من أجل إفساح الطريق لعربات المسؤولين، وقد تناثر بعض الجنود يحملون عصياً حمراء مضيئة للإشارة بها إلى السائقين.

الجميع فى داخل دار المناسبات جالسون فى وضع علاج الرقبة، الصف الأيمن كله ملتفت إلى اليسار، والصف الأيسر بأكمله ملتفت إلى اليمين، والأنظار معلقة بباب دار المناسبات من أجل الرصد والمتابعة، والعسس.

سيارة طلبة البيجو ٦٠٥ موديل ١٩٨٩ تتهادى لتقف أمام باب السرادق، ثم تمر لحظات من دون أن يفتح أى باب من أبوابها لفتاً للإنتباه، ثم فجأة يقفز ماهر عبد الهادى ونور أحمد السعيد من البابين الأمامى والخلفى على اليمين، ويترك سيف صلاح الدين عجلة القيادة، ويندفع إلى خارج السيارة ليفتح بابها المجاور لطلبة، الذى ينزل بتؤده، ويرفع يده بالسلام لرجال المرور، الذين يحيونه ـ جميعاً ـ تحية عسكرية ظناً منهم بأنه أحد المسؤولين.

طلبة يصعد الدرج ومعه ماهر ونور، بينما يذهب سيف لركن السيارة فى ساحة الانتظار، ويصافح طلبة الوزير كمال الشاذلى بيده اليمنى، ويسند بكفه اليسرى مرفق الوزير، ثم ينقض على وجنتيه مقبلاً بتأثر مفجوع، بينما تسيل دمعة ساخنة من طرف عينه، ويغمغم:

«البقية فى حياتك يا فندم.. طلبة عبد الرحمن يوسف هريدى».

ثم واصل السلام على بقية أقارب الفقيدة، ولدهشة نور وماهر، فإن طلبة لم يدخل إلى السرادق ليجلس مع المعزين، وإنما وقف مع أقارب المتوفاة لتلقى العزاء، ولم يعرف نور وماهر ماذا يفعلان، فوقفا إلى جواره، وفعلا مثلما يفعل.

كان طلبة ينتهز الفرصة، وسط السلامات على المعزين، لينظر بطرف عينه مواسياً للوزير كمال الشاذلى، بينما رفع حاجبيه على شكل رقم (٨) ليضفى على نفسه إحساساً زائداً بالتأثر والحزن، ثم يواصل بعد ذلك مصافحة المعزين وتقبيلهم جميعاً!

«لقد بدأت الليلة تسخن».

قال طلبة لنفسه، حين أبصر وفود الحزب تتقدم فى شكل مواكب متراصة الصفوف، وقد حمل كل موكب منها لافتة سوداء يحدد بها موقعه الحزبى والتنظيمى، فهذا موكب تتقدمه فايدة كامل يرفع لافتة مكتوب عليها شياخة الخليفة، وهذا موكب اللجنة الاقتصادية للحزب يتقدمه الدكتور سمير طوبار، وهذا موكب مدينة نصر تتقدمه الحاجة ثريا لبنة.

بينما حمل الأفراد الممثلين للمستويات الأدنى من الحزب باقات ورود ضخمة، أحاطتها شرائط ورقية بنفسجية مكتوب عليها كلها بالفضى:

«إلى جنة الخلد» (إذ كان هذا هو الشعار الموحد الذى عممته الأمانة العامة للحزب صبيحة الوفاة).

ووسط اندماج طلبة فى السلام على المعزين كان سيف قد وصل بعد أن ركن السيارة، وما أن صعد الدرج وبدأ السلام على أقارب الفقيدة، ووصل إلى حيث يقف طلبة، حتى أخذه الأخير بالأحضان، وأجهش بالبكاء على كتفه، منهنهاً بصوت مسموع، ومهتزاً بشدة من قمة رأسه إلى إخمص قدمه، وقد أثار المشهد شفقة جميع أقارب الفقيدة وتأثرهم، حتى أن الوزير ترك موقعه واصطحب طلبة إلى الداخل، وطلب له كوب ماء من أحد النادلين.

شبك طلبة يده فى يد كمال الشاذلى، وبدأ يقوده إلى صف الكراسى الذى يتصدر السرادق، والذى يخصص ـ عادة ـ لكبار المسؤولين، واختار ـ

بعناية ـ كرسياً يقع إلى جوار مقعد مثبت فوقه لافتة مكتوب عليها : «مندوب سيادة رئيس الجمهورية»!

جلس كمال الشاذلى إلى جوار طلبة قائلاً: «تشجع يا أستاذ كلنا لها» فغمغم طلبة بكلمات لم يتبين منها الوزير سوى «أصل المرحومة كانت عزيزة علىّ خالص»، وأحس طلبة أن العيون كلها أصبحت معلقة به، فبدأ الشغل على الفور.

نظر إلى الدكتور يوسف والى الأمين العام للحزب، وربت بيده المفتوحة على صدره علامة التحية، فجاوبه الدكتور والى بمثلها رغم أنه كان يغالب النعاس بقوة، ثم فط ونط من جوار كمال الشاذلى بعد أن كان يبدو حطاماً إنسانياً منذ لحظات، وخف ليستقبل الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب، الذى كان قد دخل لتوه يتبعه حراسه الأربعة حاملين الرشاشات، وأصطحب فتحى سرور إلى حيث يجلس كمال الشاذلى، وقعد إلى جوارهما مثبتاً عينيه فى كل الحضور من الوزراء والمسؤولين، ولاحظ أن هناك سكتة زمنية تعقب وصول كل مسؤول، وحار فى فهمها، حتى هداه تفكيره إلى أن كل واحد منهم يُقَيّم ذاتياً ـ من خلال هذه السكتة الزمنية ـ ما حصل عليه من «سوكسيه» حين دخوله.

كما أدرك طلبة أن أحداً من الحضور لم يلحظ الإنسيال الذهبى المثبت على ياقة سترته، والذى يحمل الحروف الثلاثة المشهورة: U.S.A ، فبدأ ـ على الفور ـ تنفيذ خطة بديلة.

اختار مقعداً بجوار شخص من أقارب الفقيدة، يقع على مقربة من كراسى المسؤولين، ثم وجه إليه السؤال التقليدى: «كيف حدثت الوفاة؟»، فأجابه بتأثر شديد وتقليدى أيضاً: «الست كانت زى الفل، وإمبارح وهى قاعدة تتفرج على التليفزيون، طلبت من بنتها كوباية ميه، فراحت تجيبها

من المطبخ، وأول ما رجعت لقيتها ركنت دماغها على ظهر الكرسى، وعينيها مشعلقة فى السقف، فعرفت إن سهم القدر نفذ، وإن السر الإلهى طلع، والآذان كان بيدن . . . أصل المرحومة كانت ست طاهرة جداً . . . »، وانخرط الرجل فى بكاء شديد، بينما طلبة يربت ظهره، ويهز رأسه أسفاً، ويمصمص شفتيه حسرة (ملحوظة ثالثة : أصر طلبة على موضوع المصمصة رغم أنه اختيارى، لأنه رجل يحب الشغل على أصوله).

وبعد أن هدأ الرجل، بدأ يتبادل حديثاً قصيراً مع طلبة، الذى ما فتأ يشير إلى الانسيال الذهبى، ويلكز الرجل إلى جواره بكوعه فى جنبه حتى يلفت نظره، فسأله الرجل السؤال المطلوب : «هوه البيه من أميركا؟ !»، وهنا رفع طلبة عقيرته بالإجابة بصوت زاعق يسمعه الجالسون فى السرادق من أوله إلى آخره، وحرص على أن يتكلم ببطء ووضوح حتى يسمع الجميع، وقال وسط اللغط والهمهمة السائدة فى السرادق : «أبداً والله . . ولا أميركانى ولا حاجة . . بس حضرتك عارف أنا شاعر مناضل، وبارسم ملامح دور سياسى جديد بعد انهيار الشيوعية، ودورى السياسى ده مؤيد من قِبل الولايات المتحدة الأميركية، والسفير الأميركى، نقول كمان مرة : مؤيد من قِبل الولايات المتحدة اللى عاصمتها واشنطن، والسفير الأميركى فى القاهرة اللى اسمه إدوارد ووكر، وجميع الأحزاب السياسية ومراكز البحوث والمنظمات غير الحكومية بتأيدنى وبتتصل بيه . . نقول كمان : جميع المؤسسات اللى بتتبنى الليبرالية والمجتمع المدنى وحقوق الإنساااان بتأيدنى وبتتصل بيه، والمسائل كلها ح تتكفل بيها فورد فونديشن وهيئة المعونة الأميركية فى القاهرة . . نقول كمان جامد : ح تتكفل بيها فورد فونديشن وجون ويسلى مدير هيئة المعووونة الأميركية فى القاهرة» .

كان الرجل إلى جوار طلبة لا يدرك السبب الذى من أجله يصرخ طلبة، إلا أن الأخير لاحظ أن الصمت الرهيب قد ران على السرادق، وسكت

اللغو واللغط والهمهمة تماماً، وحتى المقرئ بعد أن قرأ الربع الذى كان بصدد قراءته، أصاخ السمع كلية وأمعن النظر إلى طلبة، بينما كان يرتشف رشفات متتابعة نهمة من كوب الينسون الذى يمسك به بيد ترتعش من فرط التوتر.

وما أن انتهى طلبة من تلاوة رسالته التى يريد إيصالها للجميع، حتى لاحظ علامات تغيير دراماتيكى فى دار المناسبات، فإذا بالملامح الجامدة المتغطرسة لكبار القوم، تستحيل قسمات تطفق بالبشاشة، وإذا شفاههم المنعقد عليها تعبير القرف النبيل، أو الحزن الدفين والأشمئناط وهو ذات التعبير الذى يعلو وجه من يعانى الإمساك، تنفرج عن ابتسامات ودودة، ناعمة، وطرية، وكلها حنية.

وانقلب السرادق رأساً على عقب، فإذا بالجميع يقومون للسلام على طلبة، وقبّله البعض من فرط الانفعال، على حين كان كل منهم يدس فى يده كارتاً على سبيل التعارف، فيعطيه إلى ماهر أو سيف بلا اهتمام.

وتقدمت وفود الحزب تحمل اللافتات المشيرة إلى مواقعها ومسؤولياتها التنظيمية، إلى المكان الذى يقف فيه طلبة حيث يصافحه الجميع بانبهار، بينما يقدم له البعض طلبات بالسماح باستيراد صفقة حديد تسليح، أو عدة آلاف من الفراخ الفاسدة أو السليمة حسب مقتضيات الحال، أو يعرضون عليه مشاريع القوانين المقدمة إلى مجلس الشعب مع تحديد لمواطن الثغرات فيها، وكان يكتفى بكتابة تأشيرة موحدة عليها جميعاً تقول:

«إلى السيد المسؤول.. برجاء عمل اللازم فى حدود الدستور والقانون.. مع تحيات طلبة عبد الرحمن يوسف هريدى».

ثم كان ماهر عبد الهادى يوقع: «برجاء الإفادة»، ثم نور أحمد السعيد: «بعد الرجوع للائحة.. لا مانع»، ثم سيف صلاح الدين يؤشر: «روجع»!!

وفى نهاية الليلة كان طلبة يقف مع الفرسان الثلاثة على باب دار المناسبات.

بينما يصافحه الجميع مقبلين، وهم يومئون - بطريقة خاصة - إلى الانسيال الذهبى المثبت على ياقة سترته، ويحرص كل منهم على أن يذكر اسمه بوضوح وبصوت عال، فيما يكتفى هو - وقد رسم على وجهه تعبير القرف النبيل وهو ذات التعبير الذى يعلو وجه من يعانى الإمساك - بالتمتمة بشكل سريع :

« سعيكم مشكور » !!!!

الفالوذج واللّوذنج والتّمر هندي

ترررن . . ترررن . . تربيت . . تيريرو . . ترن . . بيريبم .

لم ينقطع رنين الهاتف فى بيت طلبة طوال الأيام الماضية، صحفيون، ممثلون لمحطات تليفزيونية عربية ودولية، دبلوماسيون، رجال أعمال، فلاحون، عمال، مثقفون، وانتهازية وطنية مصرية .

الجميع يحاولون الالتحام بمشروع طلبة السياسى، ويبحثون عن موقع لأقدامهم فى إحدى عرباته المنطلقة بسرعة القطار التوربينى الفاخر.

عمليات الظهور السياسى المكثف، وردود فعل حكاية السفير الأمريكى، ما زالت تتفاعل فى المدينة، هذا بالإضافة إلى مقالات التفسير الليبرالى لأشعار طلبة هريدى، التى ملأ الشباب بها صفحات الجرائد المصرية (قومية أو حزبية)، والعربية (من الخليج إلى المحيط) .

سيف وماهر ونور يتناوبون الرد على الهاتف، ويعيشون أحلى لحظات الفخر والحماسة، حتى أن سيف علّق على جدار الصالون لوحة ضخمة مكتوب عليها بالخط العريض :

«ونحن إناس لا توسط عندنا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر»

ماهر يجرى للرد على الهاتف، ويرفع سماعته بطريقة آلية، لا روح ولا مشاعر فيها، ويتحدث بقرف شديد، مشوب بالغطرسة والتعالى :

«ألو . . لا يافندم . . الأستاذ مش موجود . . ما أظنش ح يقدر . . صحفيين كتير قوى طالبين مواعيد . . لا لا لا لا لا اااه . . قصة حياته . . كده حتة واحدة . . لا لا لا لوو . . ده خلاص تعاقد عليها مع اتحاد الإذاعة والتليفزيون . . أيوه . . الأستاذ ممدوح الليثى كان عنده النهاردة ومعاه الأستاذ أسامة أنور عكاشة . . ومضوا عقد . . ح يعملوا قصة حياته تسع أجزاء . . كل جزء أربعين حلقة . . عنوانها . . أيوه يا سيدى ح يبقى . . ليالى الليبرالية . . لا . . لسه ما تفقوش على الأبطال . . لا أوع تنشر حاجة إلا لما الأستاذ يقول . . أهلا بيك . . مع السلامة».

ما كاد ماهر يضع السماعة حتى بدأ الرنين من جديد، نور يجرى - هذه المرة - ليرفع السماعة، ثم تبين أنه لا يعرف ماذا يفعل، فأخذ يرد بطريقة آلية لا روح فيها ولا مشاعر، مقلداً ماهر، ومتحدثاً بقرف شديد، مشوب بالغطرسة والتعالى :

«ألو . . بتقول مين . . سفير جزر القمر؟! . . لا يا فندم الأستاذ خرج . . وبعدين هوه ما بيكلمش غير سفراء الدول الكبرى بس . . أيوه أيوه . . صحيح هو صاحب قصيدة أشهد يا قمر على محنة البشر . . لكن ده مش معناه إن له أى علاقة بالجزر بتاعتكو . . لا يا فندم برضه مالوش علاقة ببوركينا فاسو . بتقول إيه سفيرها قالك إنه صديقه؟! . . لا لا لا لا لا اااه . . ده تلاقيه غاوى شهرة . . أنا أؤكد لك أن الأستاذ لا يخاطب إلا القوى العظمى . . أو - بتنازل شديد - القوى العظمى إلا قليلا . . لا مفتكرش ح قدر أرتب لك أى ميعاد معاه . . مع السلامة».

«أف ف ف» قالها نور بضجر قبل أن يبدأ الرنين من جديد، ولكنه كان رنين جرس الباب هذه المرة، فجرى سيف بعد أن عدل ملابسه توقعاً لأن يكون الأستاذ هو الهاتف الداعي، وفتح الباب بلهفة، ولكنه أصيب بخيبة أمل شديدة حين وجد أمامه رجلاً يرتدى ملابس غريبة، عمة خضراء،

ومسبحة طويلة جداً تأخذ وضع الوشاح على صدره، وقد علق على كتفه جراباً ضخماً من الخيش مرسوم عليه هلال أخضر كبير.

وضع الرجل يده فى الجراب وأخرج مظروفاً ضخماً أعطاه لسيف وقال:

«هذا المظروف للأستاذ طلبة من الجماعة . . بارك الله فيك يا أخى».

وقبل أن ينبس سيف ببنت شفه كان الرجل قد اختفى، كمثل ما يختفى جنى علاء الدين فى المصباح، تاركاً سيف فى حيرة شديدة، يمسك بالمظروف فى يده، وينظر إلى حيث كان الرجل يقف بذهول كامل.

نظر سيف على المظروف فوجد شعاراً على شكل بيضاوى مرسوم فيه سيفين، ومكتوب عليه (وأعدوا) وتحته كلمة الإخوان المسلمون . . ثم بخط كوفى بديع:

« معالى الأستاذ طلبة بن عبد الرحمن بن يوسف بن هريدى حفظه الله . . خصوصىٌ . . وشخصىٌ . . وعاجلٌ »

كانت رائحة نفّاذة ومألوفة تنبعث من الخطاب، واستفزت هذه الرائحة كل قدرات سيف فى الشمشمة محاولاً تذكرها والتعرف عليها، حتى هداه أنفه إلى أصلها وفصلها، إنها نفس رائحة السائل الشهير الذى تعود بعض ماريشالات سيدنا الحسين أن يلحوسوا به أيدى المارة أمام المسجد، والذى يصعب التخلص من أثره فى الخمسمائة ساعة الأولى التى تلى اللحوسة.

وقبل أن يفيق سيف من تأملاته ويدخل إلى الشقة من جديد، كان الأستاذ قد وصل فى حالة من الحبور والتألق النادرين، وداعب سيف بالتربيت على صدغه قائلاً: «هيه يا أبو السيوف . . إيه أخبار الأمجاد؟!».

لم يرد سيف، ولكنه سلم الخطاب إلى الأستاذ ودخل خلفه إلى الأنتريه بعد أن أغلق الباب، وهو يتطلع إليه وإلى المظروف بفضول مستعر.

طلبة فتح المظروف بثقة من يعرف محتواه، فوجد خطاباً من المستشار مأمون الهضيبى المتحدث الرسمى باسم الجماعة المحظورة، هذا نصه:

سعادة الأستاذ / طلبة بن هريدى
حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تقيم الجماعة سماطاً مشهوداً على شرفكم - بإذن الله - مساء غد الأربعاء السابع من شوال عام ١٤١٥ هـ. الموافق الثامن من مارس عام ١٩٩٥م. وسوف تكون هذه فرصة طيبة لنتحدث معاً فى شؤون البلاد والعباد، ولنبحث أمر مشاركتنا فى دوركم السياسى الجديد، ولنناقش ما قدرتموه على الجماعة من نصيب مستحق فى رفع أعبائكم المالية بعد انهيار الشيوعية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وسوف يقام السماط فى مقر مجلة «الدعوة» ١ ش سوق التوفيقية بالقاهرة.
حفظكم الله ورعاكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
المستشار : محمد مأمون الهضيبى

ابتسم طلبة، فيما سرت فى جسده رعدة خفيفة من فرط النشوة، والشعور بالانتصار، بينما وقف ماهر وسيف إلى جواره، ولم يعرف نور ماذا يفعل، فتظاهر بأن رعدة خفيفة سرت فى جسده من فرط النشوة، والشعور بالانتصار!

....

وفى المساء المشهود، وقفت سيارة طلبة البيجو ٦٠٥ موديل ١٩٨٩ المعروفة إلى جوار مسرح الفن فى الزقاق الذى يفصل شارع الجلاء عن شارع

رمسيس، وتمشى الجميع فى سوق التوفيقية إلى حيث الموعد، فمن الصعب ركن السيارات فى مكان أقرب من هذا.

كان طلبة يسير فى المقدمة، ومن خلفه الفرسان الثلاثة، متلفتاً بنجومية ظاهرة إلى المارة، والبائعين الواقفين إلى جوار عرباتهم، وقد رصت على العربات أهرامات صغيرة من ثمار الفاكهة، وفوقها لافتات مكتوب عليها الأسعار، وهم منهمكون فى تغيير هذه اللافتات بأخرى كل دقيقة ونصف بالضبط (المعدل الزمنى المتفق عليه لزيادة الأسعار)، وتَعرف البائعون على طلبة، إذ يُعتبر هؤلاء البائعين من أهم المتعاملين مع الصحف، حيث يلفون بأوراقها كل بيعة فاكهة، ولما كانت صور طلبة قد ملأت الصحف فى الآونة الأخيرة، فقد كان من الطبيعى أن يعرفه التجار، ويشيرون إليه، أو يحيونه بتقديم تفاحة حمراء لامعة، أو أصبع من الموز المستورد الفاخر.

وصل الركب إلى ١ ش سوق التوفيقية، وتعرف طلبة على باب البناية بصعوبة، إذ أن الفرارجى الملاصق للباب، كان قد رص تلالاً من أقفاص الطيور تحجب الرؤية وتمنع النظر.

ووسط الكاااااك ، والكوكوكوكووو، والكركركركر، والريش والدماء المتناثرين على الرصيف، خطا فرسان الركب خطواتهم إلى الباب، بينما أسرع ماهر بتقديم منديل ورقى إلى طلبة ليضعه على أنفه التى زكمتها روائح مخلفات الطيور الصلبة والسائلة والغازية.

صعد طلبة الدرج إلى الدور الثانى، حتى أبصر لافتة مضاءة بالنيون الأخضر مكتوب عليها «مجلة الدعوة»، بينما كانت رائحة البخور تنبعث من الداخل بقوة، وقد وقف على الباب ساعى ضخم الجثة، جامد الملامح، ما أن رأى الصاعدين حتى صاح: «إسعى وصلى ع النبي».

دلف الجمع إلى داخل المقر، حيث اصطفت فى المدخل على الجانبين مجموعة من الرجال، بعضهم ملتحين، وبعضهم حليقى الذقون، ولكن

الجميع كانوا يتصببون عرقاً، فيما يرتدون معاطف واسعة من الصوف السميك، تشبه تلك التى كان الجنود الألمان يرتدونها فى الحرب العالمية الثانية، وفى المواجهة وقفت ترويكا الإخوان الشهيرة : المستشار حامد أبو النصر المرشد العام فى الوسط، والمستشار مأمون الهضيبى المتحدث الرسمى على اليمين، والأستاذ مصطفى مشهور نائب المرشد على اليسار.

أحس طلبة أنه مدين بتفسير لجماعته حول موضوع المعاطف هذا، فهمس لهم بسرعة: «لعلكم سمعتم بعض الدعاوى التى تقول بأن كل جماعات التطرف خرجت من معطف الإخوان . . ولما كانت هذه الجماعات كثيرة ومتعددة فقد كان طبيعياً أن تتعدد المعاطف وتتسع . . »!

وقبل أن يستطرد، كان محمد عبد القدوس الكاتب الصحفى وعضو مجلس نقابة الصحفيين المستقيل قد تقدم مصافحاً، ومقدماً طلبة إلى ترويكا الإخوان حيث صافحه أعضاؤها بحرارة ضافية، وفى أثناء السلامات وعبارات التحية والمجاملة استلم محمد عبد القدوس أذن طلبة هامساً فيها بلا توقف «أهلاً يا عمنا . . أنا سمعت إنك عضو نقابة وليك صوت . . متنسناش يا عمنا . . أنا عارف إنك كنت من أشد المعجبين بالسيد الوالد . . أنا سمعت عن دورك السياسى الجديد . . وعقبال بقى ما تخش معسكر المؤمنين يا عمنا . . ».

بعد أن صافح طلبة وجماعته أعضاء الترويكا، داروا على أعقابهم من أجل مصافحة بقية الرجال لابسى المعاطف، ولما انتهوا دعاهم المستشار حامد أبو النصر للدخول إلى حيث مائدة العشاء.

كانت المائدة على شكل مربع ناقص ضلع، مغطاة بمفارش بيضاء نظيفة كالفل، وفوقها رصت الأطباق والاقداح، والفضية، وتوسطتها متتاليات متكررة من أطباق تحتوى طيوراً غريبة الشكل جداً، محشوة بالأرز

والمكسرات، وأطباق أخرى فيها حيوانات غريبة الشكل أيضاً، وجداً أيضاً، وإلى جوارها أطباق الثريد، والفالوذج، واللوذنج، وبضعة شومبينيرات تطل منها أعناق زجاجات تحتوى سائلاً بنياً وتحوطها مكعبات الثلج التى يتصاعد منها الدخان من فرط برودتها.

أحس طلبة أنه مدين - من جديد - بتفسير لجماعته حول أنواع الطعام المرصوصة أمامهم، فمال عليهم بعد أن جلسوا قائلاً بصوت خافت، ومستعرضاً معرفته أمام جماعته، بوصفه المثقف الحقيقى الوحيد فيهم: «قائمة الطعام - هذه - منتقاة بعناية لتجسد أمامنا معنى الأصالة والعودة إلى التراث، فالطيور الغريبة المحمرة والمحشوة أمامكم هى طيور الرخ الصغيرة، المعروفة باسم «مينى رخ» أو «بيبى رخ»، ويراعى أن تؤكل هذه الطيور صغيرة، لأن الكبير منها ـ عن خبرة وتجربة ـ ذو لحم يشد على الأسنان حتى يضعضعها، أما الحيوانات الغريبة المشوية فهى ديناصورات صغيرة (مقلوظة)، وتتم تربية النوعين، وتسمينهما فى مزرعة إسلامية يملكها أحد الإخوان على طريق مصر/ إسكندرية الصحراوى، وتسمى «الأندلس جوراسيك بارك» ، بعد أن تم استنقاذ البقية الباقية منها من خطر الانقراض، حفاظاً على معنى الأصالة، والعودة إلى القديم، فقد كانت طعاماً مستحباً فى الممالك والإمارات المفتوحة».

أما الثريد ـ أضاف طلبة ـ فهو الفتة أو الفتيت، بمعنى من المعاني، وهو الذى ينبغى أن يكون غارقاً فى الإدام المحوج بالمصطكى وحب الهان، ومرصوص فوقه قطع من اللحم الهبر أو الهراديم المحمر حسبما يتيسر لأى ست بيت، ونأتى للفالوذج واللوذنج، اللذان تعبت ـ كثيراً ـ حتى عرفت معنى كل منهما، فقد ذكر المعجم الوسيط أنهما من أصل فارسي، وأن الفالوذج هو حلواء هلامية رجراجة تُصنع من الدقيق والماء والعسل، أما اللوذنج فهو من الحلوى شبه القطائف ويؤدم بدهن اللوز ويتردد كل منهما

من العصر المملوكي، أما الزجاجات ذات السائل البنى فى الشومبينيرات فهى زجاجات التمر هندي، وهو المشروب الذى أشير له ـ للمرة الأولى ـ فى تأريخ ابن إياس «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ويتردد من العصر المموكى أيضاً».

«الله يفتح عليك يا أستاذ» قال نور، ثم أردف مشيراً بأصبعه فى خجل إلى طبق يحتوى شيئاً أسود، سُكب فوقه سائلاً أحمر قانياً: «وما هذا يا أستاذ؟».

قال طلبة مستعلياً تياهاً: «هذا طبق من حبة البركة بالكتشب، وهو من الأطعمة التى يهتم الإخوان بها كثيراً، باعتبارها من الأطعمة المانحة».

واصل نور أسئلته المشبعة بالفضول: «مانحة ماذا يا أستاذ طلبة؟!».

فأجابه طلبة بضجر: «مانحة البركة يا حمار ألم تتبين هذا من اسمها».

ووسط هذه المحاضرة الدافقة، كان الجميع يأكلون بنهم، والشهادة لله كان الطعام شهياً ولذيذاً، حتى أن طلبة وجماعته لم يبقوا ولم يذروا.

وبدأ أحد السعاة فى صب التمر هندى فى الأقداح، فشرب الجميع، محاولين بلع ما لهطوا، وبشم أعضاء الإخوان من الأكل، وبدأوا فى التجشؤ، حيث كان التجشؤ السميك من القرار الصوتى من نصيب الحرس القديم، بينما كان التجشؤ الرفيع من الجواب الصوتى من نصيب شباب الإخوان.

وبعد العشاء، قام الجميع إلى غرفة المستشار مأمون الهضيبى لتناول أكواب الشاى بالقرنفل تصاحبها بضع حبات من البندق والزبيب، وبادر المستشار طلبة قائلاً: «أظنك من مصر الجديدة يا أستاذ طلبة، فأنا أراك كثيراً هناك، حيث أسكن بالقرب من ميدان الجامع».

فهم طلبة مغزى السؤال وأجاب: «الحقيقة أننى أذهب إلى مصر الجديدة فى بعض الأعمال، ولكننى لا أحبها، فأنا من عشاق مصر القديمة»، فضحك المستشار الهضيبى وسُرِّيَ عنه.

وعندما جاء وقت الكلام فى السياسة، بدأ الأستاذ مصطفى مشهور الحديث قائلاً: «لقد علمنا يا معالى الأستاذ طلبة، بما قدرته على الجماعة من نصيب فى رفع أعبائك المالية بعد انهيار الشيوعية، ولا مانع لدينا فى أن ندفع صاغرين، فجيوب الإخوان دائماً عامرة، والساتر هو الله، ولكننا ـ كما تعلم ـ نوصف فى كل مكان بأننا جماعة (محظورة) أو (منحلة)، وبالتالى سيصعب علينا أن نحدد وضعاً قانونياً لنا، يسمح بأن ندفع لك، فنحن نريد حزباً ـ أولاً ـ حتى نتمكن من دفع المعلوم».

أجاب طلبة: «تحديد الوضع القانونى هو أمر من شأن الجهات القانونية المختصة، ولكن ـ بغض النظر عن كونكم جماعة محظورة أو منحلة ـ فأنتم تمارسون أنشطة عدة وتصدرون البيانات وتوزعونها بالفاكس، وتنتخبون مرشداً عاماً، وتنسقون مع تنظيمكم الدولى عبر الحدود والمسافات، فلماذا لا تضيفون على هذه الأنشطة نشاطاً إضافياً صغيراً هو دفع فلوس طلبة؟!».

ابتسم الأستاذ مصطفى مشهور وقال: «إذا لم يكن فى الإمكان ظهور وضع قانونى لنا، فنحن ـ على الأقل ـ قادرون على التحالف مع القوى الأخرى المعترف بها، ولقد سمعنا عن قوتك الجديدة البازغة، التى تسعى لممارسة دور سياسى جديد، والتى تتمتع بدعم وتأييد القوة العظمى الوحيدة فى عالمنا، وبرعاية السفير الأمريكى فى القاهرة مستر إدوارد ووكر، فلماذا لا نتحالف معاً، ويد الله مع الجماعة؟! ولقد نشرت بعض التقارير الأجنبية أننا كنا نتصل مع السفارة الأمريكية فى وقت من الأوقات، وبغض النظر عن

صحة هذه المعلومات من عدمها، فإنها تفرش أرضية مناسبة أمام تحالفنا».

أخذ ماهر وسيف يلكزان الأستاذ فى جنبيه محذرين من التورط، فالإخوان هم ملوك التحالفات، وسوف يأخذون هذا التحالف ـ من وجهة نظرهما ـ سلماً يرتقون به إلى وضع جديد، فإذا ما وصلوا إلى هذا الوضع، ركلوا السلم، فلا هم نزلوا، ولا صعد أحد.

وفهم طلبة ما يريده ماهر وسيف فهمس فى أذن ماهر: «النوايا متبادلة يا جميل. . وأخوكم الكبير لحمه مر. . ولا بأس أن ندخل فى المباراة، وسنرى من الرابح فى النهاية، المهم ـ الآن ـ أن نحصل على المعلوم».

ثم قال طلبة بصوت عال: «على بركة الله يا أستاذ مصطفى . . نتحالف . . وسوف أخبر أصدقائى فى السفارة بما تم».

غمغم الكل: «على بركة الله»، وقاموا ليصافحوا طلبة الذى استأذن للانصراف، بعد أن شكر الجميع على ضيافتهم وحفاوتهم.

وعلى السلم، استلم محمد عبد القدوس أذن طلبة مرة ثانية هامساً: «أوعى تنسانا يا عمنا . . فوق ١٥ . . هه . . فوق ١٥ . . وتيجى بدرى عشان النصاب يا عمنا».

. . . .

ما أن وصل طلبة وجماعته إلى السيارة، وركبوها جميعاً، حتى صدرت من نور صيحة فزعة ملتاعة: «يا خبر. . أنا نسيت يا أستاذ، أسلمك مظروف تاني، جابه واحد مناخيره كبيرة النهاردة الصبح، ومارضيش يقول اسمه وقاللي. . قول للأستاذ إن . . (إتش. إس) هوه اللى جاب الظرف ده».

طارت الكلمات الغضبى من فم طلبة كحمم بركان فائر، وعلا صوته المتأجج بالثورة قائلاً: «بتقول إيه . . إتش . إس. . جاب لك ظرف ياحمار

ونسيت تسلمولي. . أعمل فيك إيه. . أعمل فيك إيه. . هات الظرف جتك نيلة».

مد نور يده المرتعشة بالظرف ـ بعد أن أخرجه من جيب سترته الداخلى ـ إلى طلبة، الذى نتشه بعنف وغضب مستشيط، وتأمل الظرف من الخارج حيث تصدرته عبارة: «حرية ـ اشتراكية ـ وحدة»، وحرفا (H.S)، ثم فتحه وأخرج منه خطاباً مطوياً.

كان إتش. إس، هو عميل طلبة السرى فى أوساط الناصريين، وقد كلفه طلبة بتقديم تقارير مكتوبة يمده فيها بأهم المعلومات، عن الطريقة التى استقبلت بها الفرق الناصرية، مطلبه بمشاركتها فى دفع نصيب معين لرفع أعبائه المادية بعد انهيار الشيوعية، ومطلبه ـ كذلك ـ بأن تعقد هذه الفرق مؤتمراً عاماً تبحث فيه الطريقة التى ستقوم بالسداد من خلالها.

فتح طلبة الخطاب بينما التوتر يجتاحه من أقصاه إلى أقصاه، وقرأ بصوت عال حتى لا يضطر إلى إعادة سرد مضمون الخطاب على رفاقه:

الأخ طلبة. .

تحية ثورية عربية وحدوية وبعد

عقدت الفصائل والفرق مؤتمراً مشتركاً يوم الاثنين الماضى سعت ١٥٠٠ لمناقشة مطالبكم فى الحصول على مستحقاتكم من المبلغ المربوط الذى حددتموه.

احتدم النقاش، بين فصيل الجيل القديم «مراكز القوى»، وفصيل الجيل الجديد الذى تجاوز كل «المراكز» والمحافظات، ويشتغل ـ الآن ـ على نطاق «اقليمي».

تبودلت الاتهامات بالخيانة والعمالة واللصوصية والقرصنة على نطاق واسع.

امتدت المناقشات إلى حالة الفرق الناصرية الراهنة، وإمكان استغلال وضعكم السياسى الجديد البازغ، وعلاقاتكم بمستر إدوارد ووكر، من أجل دعم تصعيد فرقتين ـ على الأقل ـ من الفرق الناصرية إلى الدورى الممتاز، واستغلال تأثيركم الدولى فى تدبير مدرب أجنبى لهذه الفرق للنهوض بمستواها، وبخاصة أن الجمهور اعتاد ـ مؤخراً ـ أن يهتف ساخطاً فى مواجهتها: «قاعدين له ما تقوموا تروحوا»، وبالذات فى الحالات التى تمارس فيها الشغب ومحاولات الاعتداء على الحكام.

وقد رفع كل فصيل المقاعد فى مواجهة الفصيل الآخر، وثبت أن فصيل الجيل الجديد مازال يحتفظ بعدد أكبر من المقاعد، فغلب رأيه، بالتعاون معكم، وتدبير المبلغ، وقد سافر بعض الإخوة ـ بالفعل ـ فى جولة اقليمية سيطلبون فيها ثلاثة أضعاف ما حددتم، بحيث يدفعون الثلث لكم، ويتم توزيع الثلثين الآخرين بكل كفاية وعدل.

وأود أن ألفت نظركم إلى ضرورة الوفاء بالتزاماتكم تجاهي، بدعوتى على غذاء مكون من اللحم المشوى الخالص، لأننى ضجر ـ إلى أقصى حد ـ من أكل المهلبية التى تم تعميمها بوصفها طعام سياسى موحد للفرق الناصرية، لأنها مرتبطة بتراث فرقنا السياسى فى بناء الأنظمة والأحزاب التى تنهار بسهولة مثل المهلبية.

لقد مشيت معدتى ونعمت أمعائي، وأصبحت أحتاج إلى تخشينة تتكون من كيلو كباب على الأقل، مصحوباً بساندوتش ممبار.

وأود أن ألفت نظركم إلى ظاهرة أخرى ناقشناها ـ جميعاً ـ فى الفترة الماضية، وهى ما لحظناه من أن صور الزعيم الراحل جمال عبد الناصر التى نعلقها على جميع الجدران، بدت وكأنها تنظر إلينا بقرف، لا نعرف لماذا؟ بل

ويقسم البعض على أنهم سمعوها تردد: (آه لو كنت عايش . . كنت عرفت أوريكم).

وطريق الثورة طريق النصر

أخوك

H.S

«لم يبق ـ إذن ـ إلا الوفد» همس طلبة قبل أن يأمر ماهر بالعودة ـ بسرعة ـ إلى البيت.

. . . .

ما إن وصل طلبة ورفاقه إلى البيت، حتى بدأ ماهر وسيف ونور فى ترتيب الأوراق على منضدة السفرة، بينما قبع طلبة إلى جوار الهاتف كمن ينتظر مكالمة بعينها. . ولم تمض دقائق حتى رن جرس الهاتف، وامتدت يد طلبة تلتقط السماعة متلهفة.

على الجانب الآخر كان أحد عملاء طلبة فى حزب الوفد الجديد (وهو بالمناسبة ليس بك أو باشا أو دكتور) يبلغه ـ بانفعال ونشوة ـ عن تداعيات مطالبته للوفد بمبلغ مربوط تم تقديره وفقاً للأصول الثابتة للحزب وفى مقدمتها صحيفة الوفد:

«أيوه يا أستاذ طلبة. . زى ما بقولك كل أعضاء الهيئة نصحوه أنه يدفع بالتى هى أحسن، بدل تفتيح العيون على الأنشطة الاقتصادية للأعضاء، اللى لازم تكون فى مأمن من كل العيون. . وخصوصا العيون المدورة.

والدكتور محمود أباظة نصحه أنه يتجنبك، بعد ماشافك كلت الجو فى النداء الجديد، وحذره كمان من عمرو عبد السميع اللى بيكتب سيرتك لأنه

بيفضح الدنيا، وتجربته معاه ماكنتش مبشرة أبداً. . أى والله. . قالوله. . اشترى سكوتهم ياباشا واديلهم حاجة».

«إيه اديلهم حاجة دي. . هوه إحنا بنشحت؟!» قالها طلبة فى غضب مصطنع، ثم أردف بشكل حاسم: «طيب. . أنا ح أزود المربوط عليهم بنسبة ٨ فى المية. . ودى النسبة المقررة فى القايمة. . ما دام إحنا فى سنة انتخابات. . حتى لو مشيت فردي. . على أى حال ميرسى قوي. . سلام».

. . . .

التليفون يرن ـ ولكن فى منزل مستر إدوارد ووكر هذه المرة ـ فيمد يده من تحت الغطاء ليتناول السماعة التى يتبادر عبرها صوت السيدة نهال رزق مسئولة التعاون الدولى فى المكتب الإعلامى بالسفارة الأميركية.

والتى قالت فى توتر باد:

"Excuse me your excellency ...."

الموضوع لم يعد يحتمل الانتظار، وكان لابد أن أهاتفك وأزعجك فى الويك إند، الصحف مليئة بأخبار هذا الطلبة الذى يدعى أنك تساند دوره السياسى الجديد، ماذا نفعل؟، هل نصدر بياناً للتكذيب، أم تحب ـ سعادتك ـ أن تعقد مؤتمراً صحفياً تصحح فيه الأوضاع؟».

"dear Nihal .. don't worry ..... "

لقد تابعت كل أخبار هذا الطلبة. . ولم أجد ما يزعجنا. . هو يسعى لممارسة دور سياسى جديد. . وسوف ينجح فهو ذكي، ويعرف كيف يتحرك، وجميع القوى السياسية أصبحت تؤيده، أوكي. . ماذا تريدين منا أن نفعل؟ لقد علمنا درس إيران، ألا نخسر أية قوة سياسية على الساحة،

وقد أصبح طلبة قوة سياسية بالفعل، فلماذا ننفى ونتشنج ونعقد المؤتمرات الصحفية . . عزيزتى نهال . . لا تنزعجي» .

ثم أردف بصوت هادئ : -

" Have a nice weekend "

فأجابته نهال بعد أن هدأت وأطمأنت وفقدت توترها :

"You to your excellency "

النّهاية

كان المنظر ـ جد ـ غريب .

مجموعة هائلة من مؤخرات السيدات والرجال سدت الأفق عند الدرج الرخامى المؤدي إلى باب قاعة خفرع فى مركز القاهرة الدولى للمؤتمرات بمدينة نصر.

الجميع انحنوا ـ فجأة ـ لتنظيف أحذيتهم التى علاها التراب، من جراء السير فى السكة المتربة، التى تربط مكان انتظار السيارات بالقاعة . فبدت مؤخراتهم وكأنها التكوين الرئيسى فى لوحة عبقرية تعددت تفاصيلها .

الليلة ربيعية نموذجية، فيها نسمة هواء نصف منعشة، والنجوم تطل ببريق من ذلك النوع الذى قرأنا عنه فى الروايات الرومانسية قديماً، ثم لا تلبث أن تختنق ـ هى وبريقها ـ تحت وطأة واحدة من آلاف سحابات العادم التى ترتع فى سماء القاهرة، مثل قطط السلم المتوحشة، وكلاب السكك المسعورة .

خليط من روائح أرقى البارفانات الحريمية الحديثة : «إسكادا» و«توندر بوازون» و«كاشايادو كينزو»، يمتزج بخليط من روائح أرقى أنواع السيجار الهافانا الفاخر «مونت كريستو» و«روميو آند جوليت» و«بارتاجاس»، والروائح ـ كلها ـ تضفى على المكان جواً من الأبهة والأناقة الشديدة .

الجميع على سنجة عشرة، النسوان ملفوفات فى ثياب السهرة التى تبرق وتلمع على الرغم من أنف العادم وسحاباته، والرقاب والأذان والصدور

مرصعات بعقود الماس واللؤلؤ وأقراطه، والأكتاف تلفها حليات الريش، أو الفراء التى تكاد تتحدث عن نفسها وعن أثمانها، والفساتين مشقوقة ومفتوحة، من كل مكان يحتمل فتحة أو شقاً، لتبرز كل لحم لا يجاور العظم، وردياً أو أبيضاً أو أسمراً.

والرجال تضغط السترات المخنصرة الداكنة على أجنابهم، بينما تبرق فى معاصمهم الساعات، والإنسيالات، وعلى ياقات الجاكيتات تلمع الحروف الأولى من أسمائهم والمصنوعة من الذهب الخالص، ثم تبرز رابطات العنق المشجرة، والمناديل الفاجرة الألوان وسط هذه الأرضية الغامقة، لتحيل الجو كرنفالاً من السعادة يهتف: هذا من فضل ربي.

لافتة ضخمة تعلو بوابة قاعة خفرع مكتوب عليها باللون الأحمر:

نحنوح

«نحو حزب النداء الواحد للحرية»

الاجتماع التأسيسى الأول . . . . طلبة هريدى

وفى الداخل كانت الثريات الفاخرة الضخمة تغمر بأضوائها المبهرة هذا الجمع السعيد الحاشد، الذى يضم صفوة الصفوة، أو «كريم دولا كريم» فى مصر المحروسة.

البلد كلها بفنانيها ولاعبى الكرة فيها، وباحثيها، وخبرائها، وأطبائها، ورجال أعمالها، وسياسييها، وإعلامييها، جاءت ـ اليوم ـ لتحتفل بتأسيس الحزب الليبرالى الجديد «حزب النداء الواحد للحرية»، حزب طلبة هريدي، نجم النجوم، الذى أثبت أن الشمس لا تغيب عنه أبداً.

مناضد مستطيلة على الجانبين رصت عليها كؤوس المشروبات الروحية والخفيفة، وأطباق من الساليزون والكانابيه، وفناجين فاخرة، إلى جوار كل

منظومة منها كولمان للشاي، وآخر للنسكافيه، وبضعة أطباق من البيتى فور والجاتو سواريه.

الجدران مغطاة بمعرض للصور الفوتوغرافية يغطى مراحل من حياة طلبة وفوقه لافتة أنيقة مكتوب عليها:

"Tollba Hareedy : a struggle for liberalism, human rights and society ..Form Shintena Alhagar to the U.S.A. " civil

«طلبة هريدي: كفاح من أجل الليبرالية وحقوق الإنسان والمجتمع المدنى من شنتنا الحجر إلى الولايات المتحدة الأميركية».

وتحتها بحروف معدنية مطلية بطلاء ذهبي:

«نحنوح، ثم بالإنجليزية .. Nahnooh »

ثم بخط أصغر: «نحو حزب النداء الواحد للحرية».

وفى المواجهة صورتان كبيرتان بالألوان، الأولى لطلبة، والثانية لمستر إدوارد ووكر السفير الأميركى فى القاهرة، وتحتهما علما جمهورية مصر العربية والولايات المتحدة الأميركية بساريتين متقطاعتين.

مجموعات من النادلين تقوم بالتخديم على الضيوف بجوار البوفيه المفتوح، ولغط خفيف أنيق يلف الجميع، لا تلبث أن تقطعه ـ من أن الآخر ـ عاصفة من الضحك الرجالى الخشن، أو ضحكة حريمية ملعلعة صولو.

الصور على الجدران تضم لقطة من طفولة طلبة بجلباب ممزق، وأقدام حافية إلى جوار «روبة» عفنة فى شنتنا الحجر، فيما يعف على وجهه وعينيه سرب من ذباب الأرياف الرزيل، والمقصود ـ طبعاً ـ إظهار نوع البيئة التى تفجرت فيها عبقرية طلبة، وخلقت فيه روح التحدى للواقع، والرغبة فى تغييره والتحريض على هذا التغيير.

ثم صورة أخرى لطلبة فى ريعان الشباب يجلس أمام محقق فى قسم أول شنتنا الحجر، والمقصود ـ طبعاً ـ إظهار التضحيات السياسية التى قدمها طلبة فى سبيل الحقوق المدنية لبنى وطنه. (واقع الأمر أن طلبة لم يدخل قسم البوليس فى حياته إلا مرتين، الأولى للإبلاغ عن بعض أعضاء حزبه «الترقي» لقيامهم بتشكيل تنظيم يهدف إلى قلب نظام الحكم، وتداول مطبوعات ومنشورات من شأنها إثارة الخواطر وتهييج النفوس والأفكار، وحيازة بعض أجهزة التخابر مع دولة أجنبية ومن ضمنها راديو ٣ موجة، وكذلك حيازة بضعة أعداد من مجلتى الكاتب والطليعة. . والمرة الثانية دخل فيها القسم متهماً بسرقة دجاجة من فوق سطح بيت جارته أنسام، والتى حاول إقناعها بفكرة شيوع الملكية، فرقعت بالصوت الحياني، ولمت أهل شنتنا الحجر من كل فج عميق. . ويرجح أن الصورة الفوتوغرافية ـ محل التعليق ـ التقطت فى المناسبة الثانية!)

والصورة الثالثة كانت لطلبة يلقى قصيدته التاريخية «أكل من فرخة نسيرة. . أربض فى عين الصيرة» التى بدأت بها هذه الحلقات عن سيرته، والمقصود ـ طبعاً ـ إظهار التلاحم بين الفنان والجماهير، عبر الأشعار النضالية ذات الأبعاد المرتبطة بتحرير الإنسان بدناً وروحاً (استقى طلبة فكرة تحرير البدن بالأشعار من بعض عقائد الجماعات الآسيوية البوذية التى تؤمن بتحرير البدن عن طريق الضرب، والكي، والجلد المتواصل، وهى ـ فى ذاتها ـ لا تُعتبر عمليات تعذيب تنتهك حقوق الإنسان، بل تُعتبر وسيلة للسمو الروحانى ترتبط بتحرير هذا الإنسان من عبوديته ورقه).

وعشرات من الصور الأخرى التى تحكى فصولاً من قصة بطلنا.

بطلنا . . . أين هو؟

كان طلبة يقف فى وسط الردهة الخارجية لقاعة خفرع بينما تسلط عليه أضواء البروجيكتورات ويواجه عدسات كاميرات C.N.N ، وعلى مقربة

وقف تيد تيرنر مالك هذه المحطة العملاقة وزوجته الشهيرة جين فوندا ، اللذان حضرا بطائرة خاصة إلى القاهرة منذ ساعات لمتابعة إطلاق حزب النداء الواحد للحرية ، حزب طلبة هريدى ، الذى ينهمك الآن فى حديث دافق مع جيل يانج مراسلة الشبكة التى اعتادت تغطية أخبار مصر.

ماهر عبد الهادى، ونور أحمد السعيد، وسيف صلاح الدين يتولون إدخال الضيوف من الردهة إلى مقاعدهم فى القاعة .

سيارات كبار المسؤولين فى الدولة، والديبلوماسيين، والوزراء تصل تباعاً، وأمام كل منها دراجة بخارية تعوى سريتنها حتى تكاد توقظ الأموات .

رجال الأمن الخاصون يتبعون كل مسؤول مكلفين بحراسته ، بينما كل مسؤول يرمق رجال أمن المسؤول الآخر ويعدهم ، مخافة أن يتميز عليه أو يثبت علو كعبه .

رشا مجدى ، ونادر دياب ، يتناوبان الحديث إلى المشاهدين عبر شاشات التليفزيون المصرى ، بجمل أنيقة وظريفة تبدأ ـ جميعاً ـ بكلمة «واااااا بعد أيها السادة المشاهدين . . . » .

الجميع ـ هنا ـ نجوم ، يحتلون مقاعد القاعة الزرقاء الغامقة ، ويتوجهون بأبصارهم إلى خشبة المسرح التى تتوسطها منصة خطابة مكتوب عليها كلمة : «نحنوح» ، وخلفها الستار التقليدى من القطيفة الحمراء الغامقة ، وعلى المنصة تراصت عشرات الميكروفونات التى يمثل كل منها محطة إذاعة أو شبكة تليفزيون محلية أو عربية أو أجنبية .

فى الصف الأول جلس الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب ، والدكتور عاطف صدقى رئيس مجلس الوزراء ، والدكتور يوسف أمين والى نائب رئيس الوزراء ، وكمال الشاذلى وزير الدولة لمجلسى الشعب والشورى ،

وإلى جوارهم رؤساء الأحزاب الثلاثة عشر، ورؤساء الهيئات القضائية، ود. سعيد النجار، ود. سعد الدين إبراهيم، ومحمد فائق، وأديب الجابر، ود. أسامة الغزالى، ود. وحيد عبد المجيد، ود. محمود أباظة، ود. منى مكرم عبيد، والأستاذ جمال بدوى، ود. حازم الببلاوى، والمستشار مأمون الهضيبى، والأستاذ مصطفى مشهور (اعتذر الأستاذ حامد أبو النصر لظروف صحية)، والأستاذ محمد عبد القدوس، والأستاذ سعيد سنبل، والسفير تحسين بشير، ومحمد شفيق جبر، والأستاذ سلامة أحمد سلامة، والأستاذ مصطفى أمين، ود. عبد المنعم سعيد، ود. محمد السيد سعيد، وبهى الدين حسن، وأعضاء هيئة الشرطة، ورجال المطافئ.

كما ظهر فى الصف الأول مستر إدوارد ووكر السفير الأميركي، ومستر جون ويسلى مدير هيئة المعونة الأميركية فى القاهرة، والسيدة نهال رزق من المكتب الإعلامى الأميركي، والأستاذ سليم نصر مدير مكتب فورد فونديشن، وجميع أعضاء مركز ابن خلدون الذين هم مع التاريخ، وكذلك السفراء الأجانب عن بكرة أبيهم، أما السفراء العرب فقد تجمعوا إلى جوار بعضهم البعض مديرين أكتافهم للحضور، حفاظاً على الخصوصية الثقافية العربية، وتأكيداً للهوية الذاتية المستقلة.

ومن بعيد ظهرت وجوه كلها معروفة: يسرا، د. رفعت السعيد، شريهان، د. عبد المنعم عمارة، أحمد زكى، د. عبد العظيم رمضان، حسين فهمي، د. جهاد عودة، وآخرون. . وآخرون. . وآخرون.

ووسط الصفوف تناثرت وجوه وأسماء لصحفيين أجانب معروفين، من هؤلاء الذين تعودوا زيارة القاهرة، والكتابة عنها: جوديث ميللر من نيويورك تايمز، ودافيد هيرست من الجارديان، وروبرت فيسك من الإندبندنت، وماري أن ويفر من النيويوركر.

ماهر عبد الهادى يوزع على الحضور بضع مطبوعات أنيقة تحتوى برنامج الحزب، وسيف صلاح الدين يوزع كلمة طلبة هريدى فى إعلان ظهور الحزب، بينما نور أحمد السعيد لم يعرف ماذا يفعل، فأخذ يتظاهر بأنه يوزع برنامج الحزب وكلمة طلبة.

سيدات «تنت» القدامى هرولن إلى القاعة مزغردات ومحاولات الالتحاق بركب طلبة، رافعات لافتة صغيرة مكتوب عليها: نتنحنوح (أى نحو تنظيم نسائى لحزب النداء الواحد للحرية)، ولافتات أخرى مكتوب عليها: «يا حبيبى يا طلبة» و«ماذا فعل بك الكلاب؟» و«دبابات الدنيا لن تمنع وصول صوتك إلى الجماهير».

المذيعة الداخلية للحفل السيدة سناء منصور، تقدم للحضور رمز الليبرالية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني، الشاعر العملاق طلبة هريدي، الذى يلقى بمناسبة إطلاق الحزب قصيدته الجديدة.

عاصفةٌ مدوية كاسحة من التصفيق استقبل بها الحضور ظهور طلبة على خشبة المسرح، بينما كان مستر إدوارد ووكر يرفع إصبعيه بعلامة النصر، فيما يصفر مستر جون ويسلى بفمه تحية وإعجاباً بطلبة، الذى ظل ينحنى مستقبلاً التصفيق لمدة عشر دقائق، ناظراً ـ باحتراف شديد ـ إلى أعلى القاعة ثم أسفلها، حريصاً على أن يبدو مكدوداً ومرهقاً من هول ما يحمل من أثقال سياسية وفكرية على كتفيه، بينما السفراء العرب يلوحون بمناديل عُقدت أطرافها، وبالمسابح، فيما أخذت الجلالة أحدهم فهتف: حِنا للضيف.. حِنا للسيف.

. . . .

سكون تام يخيم على القاعة لا يخدشه سوى صوت حركة حاملى كاميرات الفيديو، وكاميرات التصوير الفوتوغرافى، أو حركة المصورين على منصات النقل التليفزيوني.

الإضاءة تخفت تدريجياً، حتى يظلم المسرح إلا من بقعة ضوء على شكل دائرة تسلط عل وجه طلبة، الذى يبدأ تلاوة قصيدته :

(٤٧)

روحٌ وثابه

فى قلب إمبابه

نهشتها ضباع الحكم

وقطط السلطة الكذابه

دمرها ضياع الرغبه

شتموها وقالوا : يا كلبه

إن كنت هجرتِ الزمنَ

إن كنت تركتِ الوطنَ

تُخضعك الشرطة الغلابه

وتعود النفس الأوابه

تتقلب فى الوحل الآسن

تتمرغ فى حضن الكاهن

هيكلها ذنوب وخطايا

معبدها صلاة توابه

فى قلب إمبابه

. . . .

. . . .

(٨٩)

ليبراليه . . ليبراليه

العيون دى أمريكيه

والإيمان فى القلب بيهم

مِيه . . مِيه

إوعوا يوم واحد سخيف يهتف يقول :

دانت كنت إنت اللى فيهم

قبل ما تقلب عليهم

دانت كنت إنت اللى غالي

قبل ما تبيع الليالي

آه يا طلبه . . ياللى كنت فى ليلنا شمعه

ليه تفوت فى القلب ولعه

لا يا خويا حل عني

دا الجُلَيب أمريكاني

والشعور من صغر سني

والتكيف

والتقلب

والتغير

هوه ده أصل الكتابه

فى الزمالك أو فى شبرا

أو على الكورنيش وغمره

وف قلب إمبابه

وف قلب إمبابه

. . . .

. . . .

(١١٥)

سجانى يضحك

سجانى يقهقه

ملء الفم

وملء الأشداقِ

حرروا أشواقي

والأمل الباقي

فأنا مشتاق ـ فعلاً ـ للترحالِ

وأنا مشتاق ـ جداً ـ للأموالِ

مشتاق ـ قطعاً ـ للنسوانِ

مشتاق لحقوق الإنسانِ

سجاني

مازال يقهقه

ضحك كثيراً . . صفع كثيراً . . قتل كثيراً

عشت فى سجنى كسيراً

كما عاشت ـ فى بطن الحوت ـ السمكة

والكنكة . . حوض الحمام اليومي

كما يأمرنى سجاني

داستنى أحذية الجند السوداء

سحقتنى جنازير الدبابه

وف قلب إمبابه

وف قلب إمبابه

. . . .

. . . .

٩٥ : سِفر البلاعة

من ديوان : قبلنى تحت الدبابة

. . . .

. . . .

ـ تمت بحمد الله ـ

..وحكاياتٌ أخرَى

بَسّ .. يا بَحْر !

لملم البحر أطراف عباءته الزرقاء، ومضى مندفعا فى طريقه المعتاد، يتشح بزبده الأبيض، ويهدر بصوت فوار مدمدم، محتضنا رغبة غامضة قوية، أصر على تكتم سرها!

رائحة طازجة موحية فضحت مقدم البحر، وذاعت وشاعت فى نسمة باردة سابقت الأمواج.

لامس رذاذ الماء المتطاير من فوق قمة موجه، ريش طائر أبيض من طيور البحر، فنفضه باهتزازة راعدة، ومضى محلقا يراقب فى دهشة وفضول، آلة الماء الصاخبة الهدارة التى تمضى نحو هدفها بإصرار!

أعشاب البحر وطحالبه، تعكس فى ضوء القمر ألوانها البنية والخضراء، بعد أن صعدت من القاع إلى القمة بعصامية صلدة، لتستطلع الأمر، وتعرف الأخبار!

مذاق مالح ينتشر فى الجو المشبع برطوبة ثقيلة تجثم على صدر الليل حتى تكاد تزهق أنفاسه، بينما يرتفع حائط الماء الزاحف حتى يحجب ربع القمر.

الشاطئ الرملى العريض يتمدد متلويا فى استرخاء ناعس، يلاعب بعض الأمواج الصغيرة المتكسرة التى تطش على حافته كوسوسة القبلات فى ليلة حالمة، وينظر إلى البحر الزاحف بفتور من يعلم جيدا قواعد اللعبة الأزلية، وشجاعة من لا يملك شيئا يخشى عليه!

أشاح الشاطئ ببعض رماله البيضاء فى الهواء الذى يدفعه البحر أمامه وانعكس عليها ضوء القمر فبدت نجوما ترتعش بضوء فضى أخاذ، بينما واصل الشاطئ النظر إلى ذلك البعيد الآتى. الماء يتجمع ويتكور ويتقلص ملقياً بكل ثقله فى انفجار مروع باتجاه الشاطئ، عله ينتقم لكل إحباطاته السابقة، ثم يمد أطرافه الخانقة لحظة نزوله على اليابس ليكتسح كل شيء، رافضا أن تشربه الأرض، ورافضا أن يعود!!

البحر يفترش الأرض ويتمدد، ويتمدد، حتى يتحول إلى ما يشبه بركة الماء الآسن. ويفقد طاقة التحدى، ثم فجأة يلملم أطرافه من وسط حنايا وتلافيف اليابس، ويمضى متوعداً ليبدأ رحلة العودة.

فقاقيع هوائية تملأ سطح المشهد، بينما الشاطئ يرسل نسيمه كآهة ارتياح تودع فلول الماء وتؤكد يقينه الذى لا يتبدل!!

إبريل ١٩٨٥ م

كورس

لم يفكر أحدكم ذات مرة ـ ولو من باب الحفلطة الفنية ـ فى هؤلاء الذين يقبعون خلف كل مطرب، أو مغنية، ويرددون وراءه مقطعا أو مقطعين، وأحيانا يأخذهم الحماس والالتزام معا، فيصفقون فى إيقاع منتظم فيه درجة كبيرة من نشوة الإنجاز!

إن حياة كل منهم هى ـ ولا شك ـ دراما عريضة تتوافر لها كل عناصر المأساة ـ الملهاة (التراجيكوميديا).

هم دائما على حافة الضوء الساطع، عاجزين عن النفاذ إليه، متبرمين من الظلال التى تلفهم، ناظرين بعين السخط إلى ذلك النجم المتألق الذى يعطيهم ظهره، ويحصل على كل الشهرة والمجد، زاعمين أنهم أصحاب أكبر الفضل فى نجاحاته وتفوقه.

تجد المطرب يقول مثلا :

ـ يا حبيبى يكفى قلبى طول بعادك.

فيردون خلفه :

ـ طول بعاااااادك !

ويردف المطرب :

الحياة فكر وسهاد من غير ودادك.

فيرُد أعضاء الكورس :

ـ من غير ودااااااك !

ويظل الواحد منهم معينا مربوطا على درجة (من ودادك) حتى يتوفاه الله، ودون أن يصيب أى قدر من الشهرة، اللهم إلا عند بعض الأقارب والجيران، والحرفيين أصحاب الدكاكين التى تحوط مسكنه !

وتستكمل التراجيديا اليومية لعضو الكورس عناصرها، حين يخرج إلى عملـه مودعا أبناءه وداعا مؤثرا، ملمحا إلى التعب الـذى سيتجشمه فى سبيلهم.

وبالطبع يتغامز هؤلاء الأبناء عن مهنة أبيهم، هذه التى يثير حولها قدرا كبيرا من الضجة، وهى مجرد (من ودادك).

وبالطبع ـ أيضا ـ يلاحظ الأب هذا التغامز، فلا يفوته ـ من آن لآخر ـ أن يذكر أمام أبنائه أن المسألة ليست أى (من ودادك) وإلا لأصبح كل الناس فنانين!، ولكنها تحتاج لدراسة، وخبرة، وموهبة، حتى ينخعها فتأتى كما يجب!

وفى الجلسات الاجتماعية يميل عضو الكورس إلى أداء فواصل من الدلع الشخصى. فيجلس بهيئته الفاخرة، عريض المنكبين، مهيب الطلعة، يتطاوس على العالمين، راويا ذكرياته الفنية المشتركة مع (عُوبد)!

وعندما تبدر إشارات استفهامية من الحضور عن (عُوبد) يفيد عضو الكورس أنه يقصد محمد عبد الوهاب، ثم يضيف ضاحكا مؤكدا الصلات الفنية الحميمة التى تربطه بموسيقار الجيلين :

إيه . . كانت أيام. هاهاهاى . . الله يجازيك يا «عُوبد» .

وهكذا تكتمل حلقات المأساة - الملهاة: حين لا يدخل عضو الكورس إلى دائرة الضوء إلا فى خياله وأحلامه الشخصية التى تتداخل وتختلط بالواقع أحيانا .

وهكذا نحن فى الفن . . وهكذا نحن فى السياسة .

لا نعرف الغناء الجماعى، فيظهر عندنا مطرب وكورس .

ولا نعرف الديمقراطية . فيظهر عندنا قائد وشعب .

نعم .

الله يجازيك يا (عُوبد) !!!!

إبريل ١٩٨٥م

الجُورنالجيّة

الصحفيون أو الجورنالجية أنواع!

منهم من احتل مكانة فى قلب وعقل القارئ العربى، ومنهم من احتل مكانة تحت حذاء ذات القارئ!

منهم من وهب مهنته العمر والصحة والحياة إلى آخر نفس فيها، ومنهم من تعامل مع ذات المهنة على أنها (مغارة على بابا) التى يأتى إليها وقتما يشاء «ويشيل ما يقدر عليه»!، منهم من ربى من حوله تلامذة يقتدون بمنهجه العقلى والمهنى وينهلون من دروس مدرسته الصحفية، ومنهم من عاش مرعوبا وجلا من أى شاب يدخل إلى عتبات المهنة الصعبة، منهم من احترم الكلمة، ومنهم من احترف الكلمة، منهم من لم يخن قضية شعبه أو أمته، ومنهم من لم يعرف سوى قضيته فقط، منهم من حدث قراءة حديث «بريكليس» الهادئ المتزن، ومنهم من صرخ فى قرائه صراخ «شيشرون» الجعجاع الزاعق.

منهم من عرف قيمته فوق كل منصب، ومنهم من لحس البلاط فى سبيل أى منصب، منهم من ظل يتعلم ويتعلم فى كل يوم، ومنهم من تصدى بجهالة وقحة لمهنة يراها فى غير حاجة إلى تعلم!، منهم الذى امتلأ بفكرة نذر لها قلمه، ومنهم الذى استوت عنده الكتابة بالقلم أو القدم!

منهم من أخفى رسائل القراء التى تسبه وتلعنه، ومنهم من نشرها وناقشها وتعلم منها، منهم من صان فكره فى أى مطبوعة عمل بها رياضية أو سياسية أو دينية أو فنية، ومنهم من احتفظ بزى خاص لكل مطبوعة

يعمل بها (شورت لمطبوعة رياضية وعمامة لمطبوعة دينية، وفراك لمطبوعة سياسية).

منهم من حاول أن ينصح العجزة وأنصاف الموهوبين ويساعدهم، ومنهم من غطى عجزه وجهالته بانتقاد الكبار والموهوبين.

منهم من كان تجسيدا للفوقية المهنية عملا وتصرفا وتاريخا، ومنهم من تحدث كثيرا عن الفوقية المهنية دون أن ينظر إلى موقع أقدامه فى أسفل درك من الانحطاط المهنى.

منهم من جعل المبدأ والسيرة الحسنة هدفا نبيلا لما يكتب، ومنهم من جعل المال والمنصب مرادا وضيعا لما يسطر!

منهم من كسب، ومنهم من خسر والأمر فى هذا المقام نسبى.

منهم من نال حظه ومنهم من خانه حظه والأمر فى هذا المجال قدرى، منهم من وصل، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا!

أغسطس ١٩٨٥م

المكتئبون العرب..
أين السَّعادة؟!

للشاعـر الفرنسـى الجبـار « فيكتـور هيجـو » : كتـاب اسمـه « أوراق الخريف » أو (Les feuilles de l'automne). وهو يضم بين دفتيه مجموعة رائعة من القصائد، ثبّتتنى إحداها أمام سطورها مبهورا مشدوها من قدرة الشاعر على النفاذ بعمق إلى النفـس البشرية وتحليل عناصرها ومواقفها ودوافعها وردود أفعالهـا والقصيدة بعنوان (Ou donc est le bonheur?) أو (أين هى السعادة إذن؟!).

وينتقل «هيجو» فى قصيدته عبر مراحل العمر البشرى متأملا ذاته قائلا : «السعادة يا ربى . . لقد أعطيتنى إياها».

ولكن فى كل مرحلة عمرية (الطفولة ـ المراهقة ـ الرجولة ـ الشيخوخة) كانت النفس غير راضية، وغير فطنة إلى ذلك الفيض الدافق من الفرح الإنسانى الذى أحاطها الله به.

يتطلع الطفل إلى عالم الكبار متصورا أن السعادة تكمن فيه.

وينظر المراهق إلى عالم الطفولة والمراهقة متصورا أن السعادة تداعبه.

ويرمق الشيخ عالم الشباب والطفولة متصورا أن السعادة تلفه.

هذا بينما تعجز النفس عن الإلمام بجوانب البهجة المتوثبة التى تشيع فى كل مرحلة من مراحل العمر.

لقد ختم الله على قلوب البعض. فلم يدركوا السعادة تمر من أمامهم متألقة فوارة، فاصبحنا نراهم مقلوبى الخلقة، ممتعضى الوجه، بادى السخط، فإذا ما سألت أحدهم مستفسرا عن الأسباب، أجابك: إنه مكتئب، حالته النفسية زفت، حزين، يعربد الحزن فى نفسه ويجتاح صدره عشرات المرات جيئة وذهابا فى اليوم الواحد!

الحزن، والاكتئاب، أحد التعبيرات الأكثر شيوعا على لسان الكثيرين فى عالمنا العربى الآن. ومن كثرة ما اعتاد هؤلاء الاكتئاب أو الحزن صار جزءا من آلية حياتهم يعيش فيهم، ويتعايشون معه!

البعض فى العالم العربى.. حولنا.. لا يبدع لأنه حزين!

ولا يريدون أن يبدع غيرهم لأنهم مكتئبون!

يريدون إيقاف الزمن، وقتل إيقاع الحياة الازلى.

يريدوننا أن ننتظر زوال أحزانهم حتى تواكب حركتهم خطواتنا!

ندابون يظنون أن هزائم أوطانهم ونكساتها علاجها الحزن ودواؤها الاكتئاب!

كيف يبدعون؟!

كيف يعملون؟!

كيف ينجزون؟!

كيف يحبون؟!

كيف ـ حتى ـ يكرهون؟!

كيف يتأتى لهم كل هذا وهم لا يدركون الفرح الإنسانى؟!

كيف يتأتى لهم كل هذا وهم لا يعلمون أن الفرح الإنسانى هو الطريق للقوة؟!

هل سيواجهون إسرائيل بالاكتئاب؟!

هل سيقضون على تخلفهم بالحزن؟!

هل سيواصلون التساؤل «أين السعادة»؟

مايو ١٩٨٥

المكتئبون العرب ..
نشيد الفرح الإنسانى

صرخة للشاعر الألمانى « شيللر » تقول :

«يا اصدقائى فلنترك أغانى الحزن القديمة . . . ولنغنى نشيد الفرح الإنسانى»

وقد تحولت هذه الصرخة الشعرية فيما بعد إلى بناء فنى جبار فى سيمفونية بيتهوفن الكورالية التى تهدر فى نهايتها أصوات عشرات الرجال والنساء بكلمات شيللر طارقة الفؤاد والعقل بقوة تفتت الصخر وتهز الجبال .

والمدرك لعلاقة الفرح الإنسانى . . بالقوة . يمكن أن يفهم لماذا أشار فلاسفة «القوة» الألمان لشعر شيللر فى أكثر من موقع فى كتاباتهم وشروحهم .

والمدرك لعلاقة الفرح الإنسانى بالقوة يمكن أن يفهم لماذا دفعتنا قصيدة «فيكتور هيجو» فى المقال الماضى لأن نتأمل حال المكتئبين العرب ، هؤلاء الذين لا حراك لهم سوى بغرض تعويق حركة غيرهم!

إنهم لا يدركون أن القوة تكمن فى الفرح الإنسانى وتجدل علاقتها به فى ضفيرة واحدة . وأن ضحكة من القلب قادرة على ان تصرع أمامها أحزان عمر بأكمله ، وتتهاوى تحت قدميها صرخات المكتئبين : «أين السعادة»؟!

السعادة ـ لمن يريد أن يفهم ـ لها مستويات. بعضها له علاقة مباشرة بالفرد، والبعض الآخر له علاقة مباشرة بالجماعة، والبعض الأخير يجمع القدرة على التأثير فى كليهما.

فإذا ساد الفرح علاقة الفرد بنفسه.. كان هذا أحد مستويات السعادة.

وإذا ساد الفرح علاقة الفرد الإيمانية بالخالق.. كان هذا أحد مستويات السعادة.

وبنفس المقدار الذى تقترن فيه السعادة بالقوة، نجد الحزن والاكتئاب والسخط مقترنا بالضعف... هل تريدون أمة قوية؟

إذن علموا ابناءكم أن يكونوا فرحين!

فالإيمان بالله.. فرح!

والحرية.. فرح!

والعدل.. فرح!

والشجاعة.. فرح!

والإبداع.. فرح!

....

أفلا يفهم المكتئبون؟!!

مايو / يونيو ١٩٨٥م

فى اللّيل لمّاخِلى!

سجادة سوداء فاخرة غطت قبة السماء.

بلايين النجوم والأجرام افترشت مكانها اليومى على صدر الليل، الذى أرخى سدوله بوقار سانده إرث من كبرياء قديم!

أخفى القمر بعض ضوئه فى تواضع دمث، وتبدى هلالا على وشك المحاق، يربت على كل النجوم مفسحا أمامها ساحة الليل فى إيثار، لتتلألأ فيها بصخب متقافز، وتشيع بارتعاشاتها فرحة فوارة فى كل السماء.

شبكة واسعة من الطرق يصنعها شكل المجرات المتراصة فى إحكام شديد، والخالية من الحركة ككل السكك فيما بعد منتصف الليل!

استجمعت نجمة صغيرة كل طاقتها على الحب، وأضاءت بشعاع صغير نفاذ، ومضت تسلك طريق الكبار ببراءة مدهشة.

بعض الشهب العابرة برق بادعاء كذوب، فى محاولة مصطنعة لجذب الانتباه، اطفأتها الحقيقة بقسوة، قبل ان تلقى بها وراء الشمس!

حبست الكواكب انفاسها حين مرق احد النيازك بجوار النجمة الصغيرة محاولا إجهاض محاولتها، بينما ران سكون مترقب على الجميع وهم يتابعون مسيرتها الدؤوب.

كانت الأرض مشغولة عن متابعة كل ما يجرى، دائرة حول نفسها فى نرجسية، منصرفة إلى مراجعة همومها وشئونها!

بينها ظلت النجوم الكبيرة التى رضت وارتضت مكانها تحت الشمس ترمق معافرات النجمة الصغيرة التى ترفض الجمود، وتتحدى المجهول، وتحلم بالخلاص.

لم يبق فى الليل إلا هزيعه الأخير، والاستعدادات تجرى على قدم وساق لاستقبال نهار جديد، والنجمة الصغيرة تتوهج فى عزم وهى تسابق الزمن لتحتل موقعا جديدا يليق بإصرارها، ويحترم إرادتها.

تثاءب الهلال الطيب ساحبا فوقه طرف ملاءة زرقاء، وتطلعت الأرض إلى أعلى مترقبة لحظة الشروق، ومضت كرة النار الكبيرة تحمر وتتوهج فى اشتعال متحمس، ورفع الليل قبضته عن السماء، واختفت بلايين الأجرام التى رصعت قبته.

ولم يبق إلا هى تضىء بشعاع صغير نفاذ.

وتمضى لتتبوأ مكانها على رأس كل الكبار!!

يونيو ١٩٨٥م

زيارة السيد العجوز !

لم تكن «زيارة» بالضبط، وإنما لون من ألوان الاحتلال العسكرى بالإكراه والإحراج معا.

ولم تكن «سيدة» بالضبط وإنما «خنشورة» كبيرة، مسحت عن نفسها أى لمحة أنوثة، متصورة أن هذا سمت أصيل من سمات المرأة العاملة!

ولم تكن «عجوزا» بالضبط ولكنها من الجيل الوسيط، وأرادت هى وأصرت طوال الحديث على تأكيد فارق السن بين شخصى المتواضع وشخصها مستخدمة فى هذا كل أساليب الإرهاب الاجتماعى المتعارف عليها بما فيها الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة من طراز:

(أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة) و(كبير القوم راعيها) و(إذا لم يوجد كبير وجب وجوده).

واحيانا أخرى كانت تحشر جملا منغمة من طراز: (أولادنا اللى زيك) أو (جيلكم اللى لسة طالع) أو (الشباب المتعجل).

وأحيانا ثالثة كانت تمصمص شفتيها حسرة وهى تعدد مزايا أيامهم:

(كانت الصحافة صحافة حقيقية وكان رئيس التحرير يكتب الجريدة كلها بنفسه حتى صفحة الوفيات). (وكانت البلاد تعيش فى رغد حقيقى الكفتة تباع بالمتر، والبيضة تحتوى صفارين، وزوج الفراخ ثلاث فرخات).

ثم تزفر السيدة زفيرا حارا طويلا مقتربة من هدفها الذى مهدت له :

«أين أنتم من هذه الأيام؟»!

وإلى هذا الحد أظننى قد فهمت الهدف، وتأكدت من ذلك حينما بدأت السيدة فى طرح فكرة أن تعمل معى فى عمل كنت أعد له منذ زمن طويل .

أى أنها استخدمت مدفعية الإرهاب الاجتماعى الثقيلة فى البداية تمهيدا لغزو عملى كاسح!

وهنا توقفت قليلا أمام هذا النموذج، ونظرت للسيدة قائلا :

«إن أعمار الناس يتنازعها مفهومان هما : (الامتداد) و(الكثافة)، فهناك من يمتد عمره لخمس أو ست حقب دون أن يحقق شيئا يذكر، وهناك من يحقق الكثير . . الكثير فى حقبة أو حقبتين، فالإسكندر الأكبر وموزار وحتى سيد درويش ماتوا شبابا ومازال العالم يذكر انجازاتهم حتى الآن، وغيرهم ناهز القرن عمرا وودعتهم ذاكرتنا بفتور هادئ وهامس أحيانا» .

صمتت السيدة برهة ثم سألتنى بلهفة :

ـ «هييه . . يعنى ح اشتغل معاك»؟!

وقلت لها أيضا : «إن هناك لونا من الناس لا يدرك أن جيل الخوارق الكبار كان يأخذ بيد جيل الشباب، وأن جيل الشباب يتطلع للتعلم من جيل الكبار، أما جيل الوسط فهو الذى رفض هاتين القيمتين» .

ابتلعت السيدة ريقها وقالت :

ـ «هييه . . يعنى ح اشتغل معاك»؟!

فقلت لها أيضا: «إنك لون من الناس لا يدرك أن الكثير.. الكثير.. الكثير من مصائب مجتمعاتنا وصحافتنا هى النتاج المزهر الجميل لإبداعات جيلك الوسيط الذى استخدم (ديكتاتورية السن) فى خنق كل الزهور الصاعدة، وداس بأقدامه شعار (دع مائة زهرة تتفتح) صارخا: «ولا عشرة».. «ولا - حتى - خمسة»!

وعاودت السيدة سؤالى بنفس الحماس:

- «هييه.. يعنى ح اشتغل معاك»؟؟!

مارس - ابريل ١٩٨٥م

يا عزيز ...
أنت أمل الأمة

ظاهرة!

ولكنها تحتاج إلى دراسة وبحث وتمحيص، وفهم - إذا تيسر - !!

لماذا تصر الأفلام العربية التى تتناول موضوعات سياسية أو وطنية، على إظهار اللحظات الأخيرة فى حياة الزعماء والرؤساء بشكل مأساوى؟!

طبعا هذا يمكن قبوله على المستوى الشكلى، ومن قبيل المجاملات الاجتماعية اللطيفة!

ولكن واقع الأمر أن اللحظات الأخيرة فى حياة معظم هؤلاء الزعماء تكون لحظات بهيجة لشعوبهم التى تمتلىء نفوس أفرادها بشرا وسرورا وحبورا، وتطلعا للمستقبل حين تحين ساعة الخلاص!

والأنكى من ذلك أن الأفلام العربية حينما تسهب فى وصف هذه اللحظات المأساوية (من وجهة نظرها)، وتفيض فى شرح دقائقها ووقائعها، تسجل ظاهرة عجيبة هى التى نعنى ببحثها اليوم!

فعادة يكون الزعيم ممدا على فراش الموت فى غيبوبة، ثم يفيق منها فجأة ناظرا حوله بعينين زائغتين، ماسحا زوايا الغرفة، ثم ينادى محيطيه بصوت واهن متقطع أنهكه المرض: «هاتولى . . عزيز . . . »، وهنا يتبادل الجميع نظرات خطيرة، تدل على أن المسألة مهمة، والحكاية مدلهمة،

ويبدأ المتفرج فى الإحساس بأن مقدم عزيز يحمل وراءه شيئا كبيرا، وقبل أن يسترسل المتفرج فى أفكاره، يعود الزعيم فيقول بصوت أكثر وهنا: «هـ. . ا. . تو. . لى. . عا. . زيز» ثم يروح فى غيبوبة أخرى.

وفى المشهد التالى يكون عزيز قد أتى ولكن فى عجالة استدعاها هذا الموقف المتدهور، ولا يضير هنا نظرا لهذه العجالة أن يأتى عزيز «بالبيجاما» و«الشبشب».

ويفيق الزعيم، ويبتسم ابتسامة حالمة حينما يرى عزيز بجواره، ويمسك بيده قائلا:

«يا عزيز. . انت أمل الأمة».

ثم يسلم الروح بينما يأتى صدى نشيد وطنى من خلف النافذة، وعزيز مازال يفرك عينيه غير مصدق أن الزعيم قد عينه فى وظيفة (أمل الأمة)!

بالضبط مثل الواقع.

فالمستقبل، والأمل فى المستقبل، يظل بيد الزعيم حتى مدخل القبر، ويسلمه لمن يشاء، منحة رئاسية لا راد لها!

ولكن السؤال هو. لماذا تنجح هذه الأفلام فى نقل صورة الواقع بدقة فى هذه المسألة بالذات، دون أن تنقل صورة الواقع فى أى عنصر آخر من عناصر الحياة؟!

ألم أقل لكم إنها ظاهرة؟!

مارس ١٩٨٥

شيء من الخوف

رعشة راعدة سرت فى جسدى كله حينما تحركت أوراق الشجر الخضراء المشوبة بصفرة ، تحت تأثير نسمة باردة ، تحمل رائحة مطر قريب .

حككت رقبتى فى جذع شجرة تين خشن، وأغمضت عينى مستسلما لرغبتى القوية فى النعاس .

أجفلت نافضا رأسى من خاطر النوم، ضاربا بحوافرى الأرض حتى أبعث نشاطا مصطنعا فى جسمى .

هدوء مشوب بالحذر، خيم على الغابة فى أعقاب يوم مشهود.

ست بطات، وثور، وثلاثة حمير وحشية، وفيل بأسره كانوا ضحايا هذا اليوم، وخرجوا فى نهايته من قائمة تعداد السكان القاطنين عالم الأدغال الموحش.

فى معسكرنا الانتظار يسيطر على الجميع، فاليوم هو الثالث على التوالى يمر دون ضحايا من الغزلان، والجميع ينتظرون، قد يكون دور أى منا، من يعرف؟ قد أكون أنا! وقد تكون هذه هى الليلة الموعودة .

مرت دودة كبيرة ملساء بجوار حافرى، فأثارت قشعريرة فى جسدى، كدت أضحك بسببها ، رغم هول الموقف ! لن أنام ، قلت لنفسى ، لن أنام .

أربعة ظباء مرة واحدة اختفت فى جوف ثعبان مقيت، ما أن يظهر من بين الأعشاب بعينين لا تعبير فيهما، وجلد ناعم مزركش، حتى تتجمد الضحية ولا تعرف لها فكاكا، آخر الضحايا، بالت على نفسها من الرعب، قبل ان يحاصرها ويفترسها. . أى مهانة.

جسمه كله عضلة واحدة ما أن تلتف حول جسد حتى تعتصره اعتصارا، ولقد سمعت بأذنى صوت عظام احد اخوتى يتكسر تحت الضغط كما تتكسر كومة من الحطب الهش. . لن أنام!

هل كانوا يملكون رغبة حقيقية فى الحياة، وإذا كانوا يملكونها فلماذا لم يدافعوا عن حياتهم هذه؟ لماذا لم يحاولوا ـ حتى ـ الدفاع؟! لن أنام. . قلت . . لن أنام.

وقع خطوات سريعة رشيقة ترامى لأسماعى من فوق الشجرة، لابد أنها لبعض القردة، يبحثون عن ثمار تصلح ليتقاذفوا بها معلنين بدء معارك موسم العشار. لن أنام، لن أناااام!

رحت فى غفوة سريعة، لم يوقظنى منها إلا صوت فحيح أعرفه وعينان لا تعبير فيهما، وجلد مزركش ناعم يغطى العضلة الزاحفة القاتلة، إذن فاليوم هو الموعد.

استجمعت كل غضبى، وحزنى، وشجاعتى، وحبى، وخوفى، وفرحى، وحقدى، ودمعى، وبغضى، وضحكى، وحلمى، وأملى. وارتكزت على حافرى الأماميين، وانثنى جذعى دافعا ساقى الخلفيين فى ضربة واحدة فى جسد الوحش تصرخ أن حبى للحياة أكبر من خوفى من الموت.

مارس ١٩٨٥م

علاقاتٌ كَلْبيَّة !

شخصية هامشية .

وبالرغم من هامشيتها، لفتت نظرى، واحتلت بؤرة اهتمامى، ودفعتنى للتأمل ـ ربما أكثر بكثير من الشخصية الرئيسية فى الرواية .

فلم يكن «مرسو» بطل رواية (الغريب) «لألبير كامو» هو محور اهتمامى عند قراءتها، برغم تركيب الشخصية وغناها، وبرغم دقة البناء الدرامى والفلسفى الذى احتواها .

نعم لم يكن «مرسو» هو محور الاهتمام .

وإنما الذى شغل بالى حقا ـ ومازال ـ هو شخصية هامشية فى الرواية لرجل يمتلك كلبا، وتسير علاقتهما على نحو عجيب :

ـ كل منهما يمقت الآخر حتى النخاع !

ـ كل منهما يحتاج الآخر حتى النهاية !

ـ كل منهما يتعايش مع الآخر حتى الموت !

وفى رأيى أن «كامو» لم يبرع فى وصف شىء فى هذه الرواية قدر براعته فى وصف مشاعر الرجل تجاه الكلب، والكلب تجاه الرجل .

علاقة الأمر الواقع . . والحاجة . . والتعايش . . والكراهية !

واسرح بعيدا . . بعيدا !

وتتتابع فى مخيلتى الصور، وتتزاحم فى رأسى بعض أشكال علاقات زمالة، وصداقة، وزواج، وعمل، أصادفها وأتأملها فى العالم من

حولى، واجدها (علاقات كلبية) كمثل تلك التى أبدعها «كامو».

أعرف زوجا لا يطيق زوجته ومع ذلك يعيش معها مبتسما لها أمام الناس، لاويا بوزه من ورائهم!

وأرى زميلا لا يطيق زميله، فيقابله بالأحضان بعد اجازة مقسما أن المكتب كان مظلما من غيره!

وألاحظ صديقا أقام صداقاته جميعا فى ظل شبكة مصالح معقدة واعطى نفسه حق (إدارة) حياة الآخرين لصالح هذه الشبكة، ثم يؤكد أنه الصديق الحقيقى للجميع!

ولن استغرب إذا شاهدت ـ يوما ـ أصحاب هذه العلاقات، وأحدهم يربط صديقه بسلسلة، وآخر يقدم لزميله (ساندوتش) عظم، وأخرى توبخ زوجها لدى وقوفه بجوار شجرة رافعا ساقه لأمر يعرفه الجميع!!

ابريل ١٩٨٥م

الوَحْش

اذكر جيدا المرة الأولى التى صافحت فيها عينى الشاشة الفضية الكبيرة!

لم يكن ذلك أمرا سهلا، ولا ميسورا.

فقد قبل الكبار صحبتى إلى السينما، بعدما جربت جميع الأسلحة المشروعة، وغير المشروعة التى تتيسر لطفل، الاستعطاف، البكاء، التظاهر بالمرض، الامتناع عن الأكل، المماحكة، والنفاق أيضا.

وأخيرا تحقق حلمى المنشود فى يوم مشهود، ووجدت نفسى احتل مقعدا فى إحدى دور السينما الصيفية بجزيرة الروضة فى القاهرة. واستعد لمشاهدة أول فيلم من الأفلام الثلاثة التى يعرضها هذا النوع من دور السينما عادة.

كان بطل الفيلم هو فريد شوقى، الذى طالما سمعت عنه، وعن قدراته الخارقة، وكيف كان يسدد لكمة واحدة فيصرع عشرة أشخاص على أقل تقدير، أو ينظر إلى خصومه نظرة نارية فيتراجعون فى هلع ورعب، وما يكاد يظهر على الشاشة حتى تصاحبه موسيقى تصويرية تفيد خطورة الموقف وأهميته، وعادة ما تتكرر هذه الموسيقى كلما ظهر فى أى مشهد، أو فى أى فيلم.. هكذا:

«ان ن ن.. ااااااه» !!

وأغلب الظن أن الموسيقار الذى ألف هذه القطعة الموسيقية قد اسماها سيمفونية «الوحش» تيمنا بوحش الشاشة فريد شوقى الذى اقترن بها، واقترنت به !

كان هذا هو الجو الاسطورى الذى احاط تجربتى فى مشاهدة فيلم فريد شوقى، والواقع أن عاصفة من الإثارة قد اجتاحت قلبى الصغير، وأنا أجد نفسى ـ أخيرا ـ وجها لوجه مع «الوحش» الذى طالما سمعت عنه.

وبالطبع ترك ذلك آثارا كبارا على تصرفاتى فى البيت والمدرسة فى الأيام التى تلت تجربتى السينمائية الأولى، فكانت النتيجة، كسر ذراع أحد زملائى بالفصل، وإصابة آخران بجروح وسحجات، بينما كانت صيحاتى المدوية تقلق منام أهل البيت، حين افتح الأبواب فجأة وأصرخ :

«ان ن . . اااااه» !

ومرت الأيام، وكبر «الوحش» فى السن، ولم يعد يثير فى خيالى أية صور اسطورية، وبرغم اتجاهه إلى الأدوار الإنسانية المؤثرة، إلا أنه كان يميل أحيانا إلى مزاولة هوايته فى الضرب من وقت لآخر، وكنت قد كبرت أنا الآخر ولم أعد مقتنعا بقدرات الوحش العجوز، بل إنه صار يذكرنى بقصة العفريت الكهل الذى جلس على طوار الشارع، فلما مر أمامه شاب قال :

«والنبى يا بنى تاخد بايدى لما أقوم أخوفك شوية» !!

فبراير ١٩٨٥م

أبو الكباتن

نعم . . هو أحد الألقاب التى أطلقها محبو العبد لله عليه .

ولذلك حكاية . .

ففى إحدى نوبات الحماس الصحى التى تنتابنى من وقت لآخر، قررت انقاص بعض وزنى الذى كان قد تجاوز المائة كيلو جرام .

ولاننا ابناء مجتمعات ليس فيها سر، ولأن مصالح الكثيرين تتأثر بمثل هذه النوعية من القرارات التاريخية التى يتخذها امثالى، فقد ذاع هذا الخبر بسرعة جنونية لدى باعة الحلويات المشهورين فى مدينة القاهرة، ويقول بعض الخبثاء (على سبيل التشنيع بالطبع) إن عشرين محلاً على الأقل قد اغلقت أبوابها بعد تدهور حاد فى بورصة الكنافة!

المهم أن أحد الذين سمعوا بالقرار التاريخى كان الكابتن عبد الرحمن البندارى مدرب السباحة بنادى الزمالك (مسقط رأس العبد لله رياضيا) الذى ما لبث ان انتشى فاركا يديه. وتهللت اساريره، وانفرجت تكشيرته، بعد أن عثر على ضحيته الجديدة التى سوف يهلك بدنها ثنيا، ومدا، وفردا، وجريا، وقفزا فى صالة جمنزيوم النادى! وعليه فقد اقتادنى إلى أطول ماراثون «تنحيفى» مررت به فى حياتى ونجح فى رفع سبعة وثلاثين كيلو جراما عن كاهلى!

وكان المشرف على جمنزيوم النادى وقتها هو المرحوم علاء الحامولى، كابتن مصر، وصخرة دفاع نادى الزمالك، الذى كان يتابع بسعادة وتشفى عملية التعذيب «البندارية» اليومية.

وفى ساعة عصارى من يوم مدهش، جاء بعض زملاء الفريق القدامى لزيارة عم علاء - رحمة الله عليه - وفى لحظة وجدت نفسى وجها لوجه أمام عبده نصحى وسمير قطب ونبيل نصير واخرين، وتناثرت الذكريات، والضحكات، والحكايات، إلا أن الأمر تطور بشكل غير محسوب، فقد جاشت الانفعالات بصدورهم، وقرروا ان يستعيدوا الذكريات ويلعبوا «تقسيمة» على أرض ملعب النادى ووسط مدرجاته الخالية التى شهدت أمجادهم القديمة.

كل هذا وأنا أبارك هذه الخطوات اللطيفة، والأصالة المحمودة، بل واتصعب أيضا من فرط التأثر، حتى أننى فكرت - على الطريقة المصرية - فى ارسال برقية تأييد ووثيقة بالدم.

وقبل ان استرسل افاقتنى يد عم علاء وهو يدفعنى إلى أرض ملعب الكرة قائلا: «ياللا يا أبو الكباتن»!

واسقط فى يدى فالجميع ينظرون إلىّ وكأن لى سابق معرفة بممارسة كرة القدم ويشهد الله أنها كانت المرة الأولى التى أتعامل فيها مع الكرة، بعد مرور ما يقرب من العشرين عاما - وقتها - على ميلادى السعيد.

نهايته، توكلت على الله، واتجهت إلى الملعب، وخلعت نظارتى، حيث لم أعد استطيع تمييز أى شىء يتحرك على أرض الملعب الخضراء، ومضيت متحسسًا طريقى حتى احتضنت عارضة المرمى بسعادة باعتبار أنها أول جسم صلب اتبينه وسط الأشكال الهلامية التى اسمع أصواتها ولا استطيع تحديد مصادرها.

وبدأت المباراة، وسجل التاريخ للعبد لله سبق كونه أول من لعب مباراة كرة قدم بطريقة (برِيل) مع بعض التطوير، بحيث اصبحت الطريقة تعتمد على السمع أكثر من اللمس، فبمجرد سماعى لصوت الكرة تمرق من جانبى، أجرى بسرعة شديدة حتى أكون قريبا من موقع الأحداث.

ووقعت الواقعة.

فقد صمت صوت الكرة، مما يؤكد أنها مستقرة على الأرض، وسمعت صرخات من الجميع: (شوط يا أبو الكباتن) فاستجمعت كل عزيمتى، وعدت بجسمى إلى الخلف، وملت بجذعى إلى الأمام ضاربا الهواء بقدمى التى أطاحت بجسم مستدير، بينما كانت صيحات حادة تتعالى وتردد أصداؤها المدرجات الخالية:

(جول يا أبو الكابتن) (ولا بيليه).

هذا بالطبع بينما العبد لله يتقبل هذه التهانى بثقة من كان يقصد!!

يونيو- يوليو ١٩٨٥م

عِصَابةُ القِناعِ الأسْوَد!

عند نقطة ما . .

تتبلور شخصية بعضنا، وتتحدد خطوطها فى «لازمات» لفظية أو حركية، وتصرفات نمطية، واختيارات ملابس، ومقولات فلسفية، وذوق فنى، وتجارب حياتية، ورؤى سياسية، واحساسات بالآخرين.

وعند نقطة ما . . يفشل البعض فى أن يحدد لنفسه أيا من العناصر السابقة، نتيجة ضحالة تجربة حياته، أو سطحية ميدان مشاعره، أو إنعدام مقومات موهبته!

وتحت ضغط الشعور بالعجز، وتحت وطأة مراقبة «تميز» الآخرين، يبدأ هؤلاء فى الاتجاه إلى «السرقة»!

نعم . . هى (اللصوصية الحياتية) إن جاز التعبير.

يسرقون آراءك، ويخطفون أسلوبك، ويقلدون كل تصرفاتك، ويصبحون مسخا لك يتحرك حولك بنشاط محموم، ويراقب كل ما تفعل، ويحاول أن يفعل مثلك!

إذا اشتريت حذاء اسود ذا مقدمة مدببة تناسب شكل قدمى، صرخوا، «إن الأحذية السوداء هى المفضلة لديهم، والمقدمات المدببة موصوفة لهم» (هذا بغض النظر عن اصابتهم بالفلات فوت وامتداد مقدمات اقدامهم فى قطع مستعرض فاخر!).

إذا اعجبتك مسرحية هتفوا: «إنها أعظم ما شاهدوه من أيام سوفوكليس حتى أيام برخيت» (لا يوضح أحدهم كيف تثنى له أن يشاهد المسرح أيام سوفوكليس، فضلا عن شكى فى أنه قد شاهد مسرح بريخت)!

إذا ابديت استحسانا لنوع من الطعام قالوا «إنه طعامهم الأبدى المحبب» ، وافنوا انفسهم فى طهوه كل يوم والتحدث عنه لكل الناس!

إذا بدرت منك آراء فى كتاب رددوها خلفك فى كل مجال، بغض النظر عن قراءتهم للكتاب من عدمها!

إذا أبديت محبة تجاه من تحب، أو أظهرت إعجابا لمن يستحق - من وجهة نظرك - هجموا عليه يغرقونه محبة وإعجابا دون أن يدركوا أسبابك فى المحبة أو علاتك فى الإعجاب!

إذا اشتريت سريرا مريحا سابقوا الريح إلى نفس المتجر ليشتروا سريرا مثله، وحتى إذا لم يرحهم، فإنهم لا يملوا الحديث عن الراحة التى يتمتعون بها بفضل سريرهم الجديد، والحنو البالغ الذى يحتضنهم به.

وهكذا. .

هم بلا طعم ولا لون ولا رائحة، لا تتبين لهم ملامح تميزهم أو تخصهم، هم كمن يرتدى قناعا أسود مسطحا، ثم يبدأ فى تقليد ملامح وجهك بوضع رتوش وألوان وظلال فوق هذا القناع.

واجدنى أردد قولا مأثورا يصدق على عصابات «اللصوصية الحياتية».

(التقليد تحية الجهل للعبقرية!).

أوليس كذلك؟!!

يوليو ١٩٨٥م

مِنْ صَمِيمِ القَلْبِ !

قطعة من طفولتى . . وقطعة من شبابى . . كان حسن فؤاد!

منذ ربع قرن من الزمان كنت أرتب خطة كاملة محكمة، من أجل التسلل إلى صالون بيتنا ومراقبة الكبار خلسة وهم يتحدثون فى أمور لم أكن أفهمها وقتها . . وسمعت مفردات كثيرة عن الصحافة . . والثورة . . والفن . . والحب . . والأدب . . طنت فى أذنى، وانضجت عقلى ربما اسرع مما يجب، ودفعتنى دفعا إلى طريق الكبار الصعب والمؤلم .

كان حسن فؤاد بينهم بقامته المديدة، وتحمسه الدائم، وصدقه الشديد . وكنت أرقبه كما أرقبهم وبعد انصراف (الضيوف) كنت اختلى بنفسى لاحتفل بنجاح خطتى واقلدهم جميعا، امسك بقلم رصاص بين أصبعى الصغيرين ليبدو كسيجار إحسان عبد القدوس، وارتدى نظارة ابى الطبية لابدو كأحمد بهاء الدين، وأحمل معطفا على ذراعى لابدو كسعد كامل، وأرفع حاجباى دهشة لابدو مثل محمد عودة!

أما عن حسن فؤاد فحينما وددت تقليده وجدتنى (على قدر استطاعة طفل) اتحدث بحماس . . عن الصحافة والثورة والحب ! !

ومرت الأيام . .   ودارت الأيام . .

وكبرت . . لتصبح مجلة «صباح الخير» جزءا من اهتماماتى ودراستى ووجدت نفسى أعيش على أوراق البحث بين كوكبة التيار الفنى والثقافى والسياسى الذى نشأ فى أحضان هذه المجلة .

ووجدتنى مرة أخرى مع حسن فؤاد، نبض هذه المجلة وروحها، أحبه فأحبها، وأحبها فأحبه .

وقد احببت (صباح الخير) واحببت عم حسن، الذى كان قادرا فى كل مناسبة على أن يمنحنى قدرا كبيرا من الحب . . ومن الثقة ومن التفاؤل الذى يصدر من صميم القلب . . . . رحم الله حسن فؤاد .

أغسطس ١٩٨٥م

السبيل إلى البدر!

حالة انتظار . . !

تتطلع بالأمل المخنوق إلى المستقبل، تبحث عن حلم، بدلا من أن تبحث عن تحقيق الحلم.

لماذا نتحدث كثيرا عن حلم الديمقراطية دون أن نكون ديمقراطيين فى صداقاتنا، وحبنا، وتعليمنا، وفنوننا، وتربيتنا، وصحافتنا، و . . .

لماذا تبدأ أحلامنا بجملة (لو كنت . . .)؟!

بدلا من أن تبدأ بجملة (لو كان الآخرون)؟!

نشجع فريقا رياضيا، ونلقى باللائمة على الحظ والحكام والطقس والعارضة، دون أن نتبين عدم أحقية هذا الفريق فى الفوز، ممارسين لونا فريدا من الفاشية الرياضية!

نحب لونا من الموسيقى، فلا نسمع غيره، وتسقط آذاننا اسيرة ديكتاتورية النغمة الواحدة!

ننتمى لحزب سياسى فننسى أنه حزب يلعب مع آخرين ونفكر فى إطار التعدد بمنطق الحزب الواحد!

نحب فنطالب الحبيب بأن نكون بؤرة اهتمامه الوحيد، دون أن نلزم انفسنا بهذا الطلب (الأمر)!

وإضافة على ذلك كله، فنحن نبارك أى حركة فى اتجاه «واحديتنا» ونرفض أن نشارك أى حركة فى اتجاه «جماعيتنا»، وفارق كبير بين «المباركة» و«المشاركة».

فنحن نسمع الأغانى ونطرب لها، دون أن تأتينا جسارة المشاركة فى الغناء إلا فى الحمام مثلا!

ونحن نشجع الكرة بهوس وجنون، ونخجل من مواجهة الناس بشورت وفانلة فى أحد الملاعب!

ونحن جميعا جميعا نتكلم فى السياسة، ولكننا جميعا جميعا لا نشارك فى تشكيل واقعها.

دائما هناك نائب ينوب عنا فى أى أمر يستوجب الحركة خارج إطار ذواتنا النرجسية!

ثم نتكلم عن أزمة السينما وأزمة المسرح وأزمة الكرة، وأزمة الديمقراطية.

وبعد أن نتعب من الكلام عن الأزمة، نبدأ فى الحلم بحلها، ونحلم.. ونحلم بحل يبدو كالبدر الذى لن يطلع أبدا.

ونظل فى أحلامنا اسرى حالة الانتظار كما كان المتنبى يقول:

ليالى بعد الظاعنين طوال

شكول وليل العاشقين طويل

يبن لى البدر الذى لا أريـــــــده

ويخفين بدرا ما إليـــه ســـــبيل

يوليو ١٩٨٥م

كلامٌ كبير !

الحقد :

يمارسه البعض بتلذذ طموحا لأن يصلوا لمرحلة الغل !

الديمقراطية :

ستار يخفى استبداد كل منا !

الرجولة :

موقف وقضية . . لا تنفع فيه النسبية !

(. . . . . . .)؟

مهنة الجهل الرشيق !

القراء :

نصفهم لا حاجة به للقراءة حتى تبهره، والنصف الآخر لا حاجة به للقراءة حتى تطعمه !

القلب :

مغلق للتحسينات !

الكذب :

حالة فشل اجتماعى حاد، مصحوبة بانيميا فى الضمير !

الشعر :

مرحلة يمر بها كل واحد فينا . . والبعض يستمرون !

الأحزاب :

بعضها ينشأ حول فكرة، وبعضها ينشأ حول طبقة، وبعضها ينشأ حول مائدة عشاء!

الغباء :

درع يحمى عقول الأغبياء من إدراك الحقيقة !

السوقية :

يفسرها البعض على أنها أخلاق «السوق» !

المسرح :

«دنيا» يعيش فيها بعضنا «تحت الضوء»، والبعض الآخر فى «الكواليس»، والبعض الثالث فى «كمبوشة الملقن» !

الصداقة :

تبدو أنبل حين نعيد اكتشافها !

الفهلوة :

مبادرة مقتحمة تغطى جهلا فادحا !

الحب :

لا يتجزأ !

«ليس بالكذب وحده يحيا الإنسان!»

(صحفـــــى)

«إنى رأيتكما معاً!»

(مخـــــبر)

إن أربعين «قرنا» من الزمان تنظر إليكم !

(خـــــروف)

«يـــا للهـــــول» !

(مؤرخ للشرق الأوسط)

«وما نيل المطالب بالتمنى!»

(حانوتـــــى)

مارس- يونيو ١٩٨٥م

حزب المتألمين
على المبادئ الفشنكية!

هو تنويع خبيث على اسم حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية)!

ومبعث التنويع هو الدخول إلى وصف جماعة من أهم وأخطر الجماعات العربية المعاصرة:

هذه الجماعة هى جماعة المتألمين ألما دائما، والمتباكين بكاء حاراً والمطحونين الذين تضيع صيحاتهم المبحوحة، وزعقاتهم المكتومة وسط ركام أجسادهم المسحوقة!!

أى والله..

فهناك صنف من البشر احترف (التألم) وسط الناس، كتمهيد للمزايدة على الآخرين الذين لا يبدون نفس القدر من الألم تجاه ما يعتقد أنه مؤلم!

والغريب أن محترفى الألم - فى تأكيد صارخ لمزايداتهم - يربطون بين قضاياهم الشخصية التى تؤلمهم (أو يدعون أنها كذلك). وبين القضايا العامة التى يفترض أنها تؤلم الجميع، بحيث يصبح ذلك ارتباطا شرطيا لا فكاك منه، فمن يتألم للقضية العامة، لابد أن يشاركهم التألم والأنين لقضيتهم الخاصة!

والغريب أيضا أن محترفى (التألم العام) هم فى الغالب من الصنف الذى ارتكب أمرا ما ويود تغطيته بالتألم حول ضياع المبادئ ، تلك المبادئ التى طعنها مثنى وثلاث ورباع!

ما علينا . .

تعالوا نبنى نموذجا عمليا لمقولات حزب المتألمين على المبادئ الفشنكية . . ونتأمل قليلا . . أو كثيرا (حسب وقتك يا عزيزى القارئ) فى هذا الصنف من البشر :

(يصرخ أحدهم أن أصبع قدمه الكبير يؤلمه ، وأنه لا يستطيع أن يلبس حذاء ، فأين يذهب به إلى هذه الطرق القذرة التى لم ينظفها أحد منذ ربع قرن؟ ، ويردد قول جان بول سارتر : «ما جدوى أن يكون العالم واسعا وحذائى ضيقا!» ، أواه لقد ضاع نصف عمرى دون نظافة شوارع ، ولكن من يحس بألمى وألمنا جميعا طالما أن هناك من يمتلكون العربات التى تكفيهم مشقة المشى فى الشوارع القذرة حينما يؤلمهم أصبع قدمهم الكبير ، هؤلاء الذين يأكلون بسهولة ، ويشربون بسهولة ، ويتزوجون بنفس السهولة ، لماذا لم أتزوج؟ ، لماذا لا تحبنى الفتيات؟ ، نعم . . لأننى لم أحصل على نصيب عادل من الدخل القومى يتيح لى معالجة أصبع قدمى الكبير والتفرغ للحب والزواج ، وكيف أحب وأنا مشغول بالنضال من أجل قضية فلسطين ، نعم تلك القضية التى غابت عن ذهن الجميع ما عدا خلاصة المناضلين أمثالى ، الذين مازالوا يعيشون القضية ويكافحون بكل ذرة فيهم رغم شدة الألم التى حلت بأصبع قدمهم الكبير ، إن غيرى ممن أصيبوا بالألم فى أحد أصابع قدمهم الصغيرة تقاعسوا عن النضال ،

بينما أنا . . . . . أنا . . . (يصرخ) . . . . . أنا . . . . . مازلت أناضيل كاتماً ألمى الكبير فى أصبع قدمى الكبير!).

وقبل أن ينهى المتألم حديثه ينثر هنا وهناك فواصل من الكلام عن المبادئ والمثل وحبتين (صدق)،

على حبة (معاناة).

ودقى يا مزيكا!!

اغسطس - سبتمبر ١٩٨٥م

شيء من العذاب

وقف الرجل وقفة أسد هصور، وهو يلاعب شعيرات شاربه الكث بطرف أصبعه، ثم عقد الحاجبين على الجبين اللجينى، وزفر بغضب حتى ليخال المرء أنه ينفث نارا ذات شرر، وصاح:

ـ «والله.. تالله، لانفخنك بالمنفاخ، حتى تفرقع أجنابك، إن لم تعترف بما أريد وأرغب»!

هذا ـ بالطبع ـ ليس مشهدا من فيلم سياسى يصور عملية الحصول على الاعترافات من سجين رأى، فى إحدى دول العالم الثالث!

ولكنه صورة تذكرتها، وأنا استمع إلى أغرب مقولة مررت بها فى حياتى.

فقد أعد التليفزيون البريطانى حلقات اسبوعية تسجيلية ممتازة عن كفاح الجزائريين فى سبيل الاستقلال، وعرضها فى ذكرى معركة الجزائر، وجلست أتابع فصول الملحمة الجزائرية، واستمع إلى سيرة جميلة بوحريد، معارك الشوارع، والعمليات الفدائية، وأيضا تعذيب المناضلين.

حتى هذه المرحلة، والأمور تسير فى إطارها الطبيعى، والتليفزيون الإنجليزى يمارس حياديته المعتادة فيأخذ رأى الطرفين (الفرنسيون ـ الجزائريون)، وهذا أيضا تصرف مهنى محمود، إلى أن طلع علينا أحد

الجنرالات «الفرنسيس» (كما كان الجبرتى يسميهم) شارحا نظريته العجيبة عن التعذيب .

يقول الجنرال :

«التعذيب هو الذى يحدث عاهة مستديمة بالإنسان ، أما الذى حدث فى الجزائر ، فكان مجرد تعريض جسد المعتقلين لتيار كهربى مع خفضه ورفعه ، حتى يفقدوا الوعى ويبدأوا فى الاعتراف»!

ـ الله يفتح عليك يا أستاذ!

ما هذه الروعة ، لكم أوتيت من البلاغة ، إننى لأسأل ما الذى يمكن تسميته تعذيبا إذن؟!

واضح أننى كنت أمام نوع جديد من البشر ، يعتبر دغدغة جسم المعتقل السياسى بالكهرباء ، نوعا من الملاغاة الحنون .

وواضح أن الجنرال يمارس فى حياته اليومية تصرفات لطيفة كهذه .

فغالبا توقظه زوجته بسكب حلة من الزيت المغلى فى صرصور أذنه ، وأظن أنه يحلق ذقنه ببلطة حامية ، ويلعب مع أطفاله بتعليقهم من أصبع قدمهم الصغير على باب المنزل ، ومقعده الوثير المفضل ذو حشية مغطاة بالفحم المتقد ، هذا عدا هواياته المتعددة مثل رى حديقته بماء النار ، وشرب كوب من الدم المثلج (على غيار الريق) ، أو لعب الجولف بكرات من جماجم صغيرة ولطيفة .

وغالبا ما يحمل الجنرال الفرنسى فى حقيبته أدوات الشغل ، وقد صممها بنفسه فى أحجام عملية سهلة الحمل والاستخدام ، منها مثلا

خلاعة أطافر أنيقة ومذهبة، ومنفاخ جلدى بسيط يصلح للاستخدام فى كل أوقات النهار.

أشحت بيدى فى وجه الجنرال الكريه، ودوت فى إذنى كلمات عبد الرحمن الشرقاوى على لسان جميلة بوحريد: «بالله يا ريح الظلام عودى إلى البلد الذى أقبلت منه وبلغى عنا السلام!».

يناير ١٩٨٥م

عُضَّ قَلْبِى!

عجيبة تلك العبارة بما فيه الكفاية!

«عض قلبى ولا تعض رغيفي».

ومبعث العجب، أن الذى أطلق هذه (العبارة ـ القانون)، كان على استعداد أن يضحى بقلبه فى سبيل إنقاذ رغيفه.

ومبعث العجب، مرة ثانية، ليس السهولة التى يفرط بها صاحب المقولة فى قلبه، ولكن الإقدام الذى يدافع به عن رغيفه!

فأى رغيف هذا الذى يثير فى النفس هذه الفدائية الجسور؟!

هل هو رغيف «بلدى» مثلا؟ ومن هنا فهو يرتبط بنوازع وطنية، تجعل الحفاظ عليه نوعا من الحفاظ على الشخصية القومية فى مواجهة التأثيرات الأجنبية الغريبة عن مجتمعنا!

هل هو رغيف «شامى» يعبر عن الشعور القومى، ويرسخ فى النفس اقتناعا بالوحدة التى ما يغلبها غلاب؟!

هل هو رغيف «شمسى» يدعو للتمسك به فى زمن أصبحت الموضة فيه هى البحث عن بدائل «الطاقة»؟!

هل هو رغيف «بتاو» يثير مشاعر الارتباط بحياة الريف الرغدة الجميلة، تأكيدا لنظرية الزميل الدكتور محمد عبد الوهاب: «محلاها

عيشة الفلاح»، الذى ـ من وجهة نظر الدكتور طبعاً ـ «يتمرغ على أرض براح»؟!

هل هو ـ أخيراً ـ رغيف «فينو» يعتبر بقاؤه ضرورة تمثل الاستعانة بالخبرة (الأجنبية) فى سبيل امتلاك ناصية التقدم التكنولوجى؟!

كل هذه أسئلة تثور فى النفس والعقل حول «طبيعة» الرغيف نفسه، ولكن إحدى النقاط الجديرة بالبحث والتأمل أيضا هى «مضمون» الرغيف.

فرغيف كهذا الذى يدفع الإنسان للجود بنفسه وقلبه فى سبيل إنقاذه، لا يمكن أن يكون مجرد رغيف (حاف).

ولكنه ـ دون شك ـ سيكون رغيفا محشوا بأطايب الأطعمة، التى تبلل وجهه المحمر بدسمها ومرقها.

وسوف تكون هذه الأطعمة ـ بلا جدال ـ من النوع النادر النفيس، كلحم الطاووس مثلا (بالمناسبة هل تذوق أحدكم لحم الطاووس؟! أرجو أن يخبرنى عن طعمه حتى أقرر ما إذا كان يستأهل التضحية أم لا؟).

واستكمالا لبحثنا عن هذا الرغيف المعجزة، الذى نجح فى أن يصبح «رمزا» نضحى فى سبيله بالحياة، بدلا من أن يكون «وسيلة» لاستمرار هذه الحياة.

فإن تخليد هذا الرغيف يعد أمرا واجبا، يدعو لاستمرار تأجج نفوس الشباب برغبة التضحية من أجله، وقد يكون ذلك بإقامة نصب تذكارى للرغيف المجهول أمام أحد المخابز، بحيث تلقى من حوله أكاليل الزهور فى المناسبات الوطنية للترحم على شهداء الرغيف، أولئك الذين إعتنقوا النظرية الخالدة:

«عض قلبى ولا تعض رغيفى»!

١٩٨٥م

في رثاء طفل!

(على أعتاب العام الثلاثين)

كانت لى ضحكة طفولية أحبها!

أطلقها صافية مجلجلة، حين أطل على كل

الذين يتصنعون النضج!

أضحكها، وأنا غاضب، أضحكها وأنا أكتب، أضحكها وأنا أضحك!

أضحكها ـ حتى ـ وأنا أبكى، من شر لا أقوى على مواجهته!

كنت أجرى إلى كراسة رسم صغيرة، وعلى صفحاتها ينال كل «ظالم» عقابه، الذى يستحق، واضحك، واضحك... من الأعماق!

تصفحت كراستى القديمة، فتتابعت أمامى الوجوه:

وجه معلمتى التى عاقبتنى حين رسمت «بالألوان» على غطاء القمطر!

ولاعب كرة زملكاوى أهدر منا بطولة الدورى ذات مباراة!

وزميل شاعر هلك بدنى بقصيدته الخالدة (لا تلومى)!

ووزير أغلق مسرحا وبضع مجلات!

وطالب سألنى فى مدرج الجامعة: لماذا نتعلم؟!

وكوميدى مرذول سمج لقب نفسه «خفيف الظل»!

وزعيم أغلق بلده كالدكان ومضى إلى حال سبيله!

وصحفى قال: «الحياة خطف، والعمر لحظة»!

ومثقف اتهم الجميع بالخيانة!

وحمار كبير عاتبنى غاضبا (أو قل رافسا): لماذا ترسم فمى بهذه الضخامة؟ مع أن لى فما «مسمساً»!

وأخيرا وجه صديقى الذى انباءنى ـ مع الأسف ـ نبوءة صادقة: «ولى زمان ما تحب، وجاء زمان تدفع فيه ثمن طفولتك، نضجا وراء نضج، وحزنا وراء حزن»!

بالإضافة إلى مجموعة من أرقام التلفونات (المشغولة)، ومسودات قصص (لم تنشر)، واسماء لأشخاص (لا أعرفهم)، ورسم لآلة كاتبة تضع فيها المخ من هنا، فتخرج المقالة من هناك!

ومجموعة أخرى من الآراء المهزومة فى الفن، والحب، والأدب، والانقلابات العسكرية!

وكبرت، ربما أكثر مما يجب، ففقدت ضحكتى، وتعودت نضج الكبار، ووقفت حيث وقفوا.

ملحوظة مهمة جدا:

(تقف مشاعر العقلاء، المتزنين، الكبار، ـ عادة ـ فى منطقة «محايدة» مثل سويسرا، حيث الحزن ليس حزنا بحق .. وحيث الفرح ليس فرحا بحق، وحيث الحلم والأمنيات الغوالى تتخبط فى دمائها، بعد أن تذبح بمقصلة النضج، والمعقول، والتقليدى... والممكن)!!

يناير ـ فبراير ١٩٨٥ م

الفهرس

رقم الايداع : ٨٢٠٠/ ٩٥
I.S.B.N 977 - 09 - 0306 - x

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب . ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

كفاحى

مؤلف الكتاب هو د. عمرو عبد السميع

وهو محاور صحفى من طراز رفيع إلى جوار مقدرته على إدارة ندوات صحفية سياسية، يستغل فيها قدرته على الصعود بالحوار إلى الذروة وإستخلاص الرأى أو إعتصاره من أطراف الحوار .

وهو رسام كاريكاتيرى يومى، ليست السخرية جديدة عليه .

نحن ـ إذن ـ أمام جوانب متعددة فى شخصية الكاتب، وهى مواهب تشبه قطعة الماس التى تشتعل من الداخل بألوان مختلفة، حين يسقط عليها شعاع من الضوء وينكسر داخلها إلى آلاف الألوان .

فى هذا الكتاب يرسم د. عمرو عبد السميع صورة لمناضل من مناضلى هذا الزمان، مثلما رسم ليرمونتوف فى كتابه « بطل من هذا الزمان » صورة لبطل المرحلة التى كانت تمر بها روسيا .

ومع الفارق المتمثل فى درامية كتاب ليرمونتوف وفكاهية كتاب عمرو عبد السميع يبقى الأساس قائماً، وهو صورة إنسان ينتمى إلى العصر الذى يتحدث عنه المؤلف .

ومن خلال المزج بين ماهو واقعى وماهو خيالى يقوم المؤلف بتعرية النضال والمناضلين.. والمبادئ والقيم والأقوال والأفعال وبهذا كله يرسم صورة جديدة للمجتمع وسط قهقهة القارئ وعدم تصديقه لما يجرى .

احمد بهجت